سلسلة الخلفاء



(٦٥٩-٩٢٣هـ)

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى

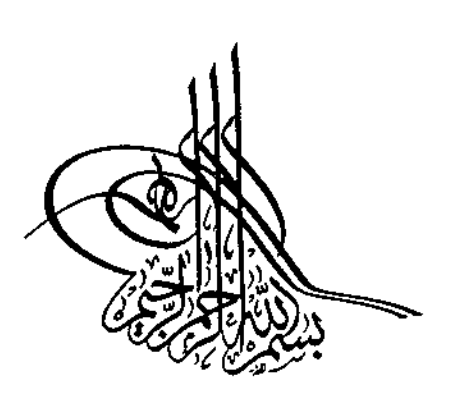
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

غياب الخلافة

(٦٥٩-٩٢٣هـ)


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وسيّد المرسلين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه إلى يوم الدين، *أما بعد* :

فإن غياب الخلافة عن الساحة الإسلامية قد جعل الكثير من المسلمين ينسى مكانتها وأهمية إقامتها وضرورة إعادة قيامها إذ هي عنوان اجتماع المسلمين، وشعار وحدة أمتهم، ورمز عزّتهم، وأساس قوتهم، وسبب مَنعتهم، وفي الوقت نفسه هي هدف أعدائهم، ومحطّ نظر خصومهم، ومرمى سهامهم ومجال مخططاتهم ومركز مكرهم، ويعلمون أن السهم إن أصاب مرماه فقد ضعفت الأمة الإسلامية وإن نجح تنفيذ مخططهم ذلّ المسلمون وهانوا، وإن كان مكرهم أكثر خبثاً تشتّت المسلمون وتفرّق أمرهم.

ومن الواجب علينا اليوم تذكير المسلمين بخلافتهم وأثرها في أمتهم وتنبيه الغافلين على واقعهم وإعادة الدعوة إلى الخلافة فلعلّ الأمة تعود إلى رشدها

فتصحو من غفلتها، وتنهض من رقدتها، وتقوم من عثرتها، وتُنقذ المفتونين من أبنائها وتُنادي بقيام خلافتها وتستجيب لعلمائها قبل أن يقوم الأعداء بردّ الفعل، واتخاذ المكر، واتباع الحيل إذ يرون في الخلافة خطراً على مصالحهم، وقضاءً على مخططاتهم، ومنعاً لتنفيذ مشروعاتهم، إذ الخلافة تمثّل العمل بالإسلام، ووحدة المسلمين، ورفع معنوياتهم بالجهاد، وهذا ما يُخيف الأعداء ويعدّونه أكبر خطرٍ عليهم فيعملون على محاربته والقضاء عليه. فإذا استطاع المسلمون سبق خصومهم في الاستجابة للعلماء الصالحين وأولي الأمر المسلمين الصادقين وعملوا مخلصين فقد أنقذوا أمتهم مما تعاني وألقوا بمكر أعدائهم ومخططاتهم خارج الساحة وضربوا بها عرض الحائط، وإن فشلوا ـ لا سمح الله ـ فقد تمكّن وضع الأعداء في بلادنا وثبتت أقدامهم على أرضنا، وعملوا على اجتثاث أمتنا من جذورها ـ إن استطاعوا ـ حيث كان هذا آخر مخططاتهم وما وصلت إليه، وما دفعهم إليه حقدهم، وقد أعدّوا لذلك آخر ما تفتقت عنه عبقريتهم من غازاتٍ سامّةٍ، ونواة الذرة، ووسائل فتّاكة، وأدواتٍ مُدمّرةٍ لإبادة الأمة الإسلامية نهائياً، وما يحدث في فلسطين كبدءٍ لذلك من جرائم وإبادةٍ ما هو عنا ببعيدٍ، وما جراحه بالتي تلتئم، وما

بنزيف دماء القلب ألماً مما يحدث بالذي يتوقّف، ويوالي الكفار بعضهم بعضاً بالدعم والتأييد والتشجيع والتبرير ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة].

يا إخواننا المسلمين التزموا بعقيدتكم، واعرفوا واقعكم، واحذروا عدوّكم وأولياءه، واستعينوا بالله واصبروا إن الله مع الصابرين، واتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أُعدت للكافرين، ولا تغرنّكم الحياة الدنيا بما تروا عند أعدائكم من نعيمٍ زائلٍ، وأبشروا بالنصر في الدنيا إن صدقتم، وبالفوز الكبير في الآخرة بجنّةٍ عرضها السماوات والأرض إن اتقيتم الله وكنتم من الصالحين.

وأخيراً نرجو لنا ولكم الصدق بالقول والإخلاص بالعمل والنجاح بالمسعى والنصر بالدنيا والفوز بالآخرة إن الله سميع مجيب، غفور رحيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الرياض: ٢٧ رجب ١٤٢٣هـ.

محمود شاكر



الخِلافَة

بُعث رسول الله ﷺ فبلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح للأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وأقام دولة الإسلام، وحكم بما أنزل الله، ونشر الدعوة، وقام بالفتوحات فتوسّعت الدولة حتى شملت أكثر جزيرة العرب، وجاء الأجل المحتوم فانتقل خاتم الأنبياء والرسل من دار الدنيا، وانقطع الوحي.

اختار المسلمون من يخلف رسول الله ﷺ ليُتابع المهمة مقتفياً بعمل رسول الله ﷺ في الدعوة والفتح والجهاد والالتزام والتطبيق والسيرة، وكان الذي اختاره المسلمون خليفةً[1] لرسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه صاحب رسول الله في الغار.

---

(١) الخلافة: الإمارة. والخليفة السلطان الأعظم. ويمكن أن يقال للأئمة: خلفاء الله في أرضه بقوله ﷻ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [صٓ: ٢٦]. واستخلف فلان فلاناً: جعله مكانه. وخلف فلان فلاناً إذا كان خليفته، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾ [الأعراف: ١٤٢]. استخلفه: جعله خليفةً.

سار الصديق ﵁ على سيرة رسول الله ﷺ ونهجه فانتشرت الدعوة وتوسّعت الدولة، وطرقت جيوش الفتح في عهده أبواب دولتي الفرس والروم كبريتي دول ذلك العصر، وكانتا قد وقفتا في وجه الدعوة الإسلامية، وقد انتصرت جيوش الفتح على جيوش الفرس والروم ودحروهم أمامهم وارتفعت راية الحق، وجاء أمر الله، وانتهت حياة الصديق ﵁.

وقام الفاروق ﵁ بعد الصديق وبعهدٍ منه، وسار على نهج من سبقه وانطلقت الدعوة وتتابعت جيوش الفتح تدكّ معاقل الظلم، وتُزيل قلاع الشرك، وتدعم أركان الحق، وترفع راية الإيمان فتسلّلت أيدي الحقد ممن دال سلطانهم وزال باطل مجوسيتهم، فوصلت بعض هذه الأيدي إلى الخليفة وغدرت به فكانت القاضية فسبحان من له الدوام، وجعل عمر ﵁ وهو في أيامه الأخيرة الخلافة في ستةٍ من رجال الشورى، وهم من المبشّرين بالجنّة من رسولهم ﷺ، فاجتمعوا واختاروا عثمان بن عفان ﵁ خليفةً للمسلمين.

نهض ذو النورين ﵁ بالخلافة، فتتابعت جيوش الفتح انطلاقها، وتوالى انتشار الدعوة استمراره، وبقيت راية الجهاد مرتفعةً، ولكن تحركت أحقاد بعض الذين

كسر المسلمون شوكتهم، وأنهوا نفوذهم المادي، وقضوا على حيلهم وألاعيبهم؛ ألا وهم اليهود، فغيّر أحدهم صبغته وأظهر الإسلام وأخذ يتنقّل بين أجلاف الأعراب ومن دخل في الإسلام حديثاً يُثير الأحقاد ويفتري الكذب فتحرّك بعض الذين في نفوسهم مرض ومن امتلأت قلوبهم أحقاداً، وتسلّلوا إلى بيت الخليفة فقضى نحبه شهيداً ﷺ، واستخلف المسلمون علياً ﷺ.

نهض بالخلافة علي بن أبي طالب، رابع الراشدين، أبو السبطين الحسن والحسين ﷺ، فقام بالأمر على نهج أسلافه فتابعت الدعوة نشاطها، والفتوحات تقدّمها، والحق مجراه، والعدل سيره، ثم جرى خلاف في وجهات النظر حول قتلة الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان ﷺ، فالخليفة عليّ ﷺ يرى التأكّد ثم القصاص، وأمير الشام يرى وضوح الأمر ولا بدّ من القصاص قبل البيعة، والأصل أن الأمر للخليفة فهو صاحب الحكم والأمر والنهي وعلى الأمير الوالي السمع والطاعة، ولكن وُجد من وسّع شقة الخلاف وأضرم النار فوقع الصدام واشتدّ أواره ،ولكن مع هذا يجب أن نلاحظ نقطةً مهمةً أغفلها أكثر من كتب في هذا الموضوع، وهي أنه كان إذا حان

وقت الصلاة والقتال دائر يتوقّف الجميع ويتّجهوا إلى الصلاة فيؤمّهم الخليفة عليّ ﷺ. وأنه إذا سئل الوالي معاوية ﷺ سؤالاً وحار في الجواب يُرسل رسولاً إلى الخليفة عليّ ﷺ يسأله ويأتيه بالجواب ويُبلّغه إلى سائله مُخبره أنه جواب الخليفة ﷺ فهو إذن صحيح، وهذا يدلّ على أن هذه الخلافات بين هاتين الطائفتين كانت خلافاتٍ اجتهاديةً ليس أكثر كما يحاول المغرضون والمغفّلون إبرازه، ثم إن الوالي معاوية ﷺ، كان يُقدّر الخليفة عليّاً ﷺ حق قدره، ويحترمه، ويُقدّمه على نفسه ويعترف بفضله وخلافته، ولو لم يكن ذلك لأعلن نفسه خليفةً وهذا لم يحدث، بل وضع نفسه موضعها فهو والٍ أمير، وكان الذي وقع أن هناك من يُضرم النار خفيةً، ولم ينتبه إلى ذلك أحد من الطائفتين.

وظهرت فئة في هذه المرحلة رأت شذوذاً من الطائفتين، واعتدّت برأيها وتحمّست له، وتبعها أناس وانقادوا لها، وأعلنت الحرب على قادة الطائفتين، وعملت على التخلّص منهم، وخطّطت ونفّذت، وأخفقت في قتل معاوية وعمرو ﷺ، ونجحت في قتل عليّ ﷺ وكان أمر الله قدراً مقدوراً. وقضى عليّ ﷺ نحبه شهيداً.

بعد إصابة عليّ رضي الله عنه دخل عليه جندب بن عبد الله[1]، فقال له: يا أمير المؤمنين إن فقدناك، ولا نفقدك أفنبايع الحسن، فقال: ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر. ونهى عن المُثْلَة بقاتله، وقال: إن متّ فاقتلوه بي، وإن عشت رأيت رأيي فيه، ثم لم يلبث أن توفي رضي الله عنه.

تعصّبت الفئة التي كان منها قاتل عليّ رضي الله عنه لرأيها وتحمّست بدعوى الحمية للإسلام، ونسيت قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات].

والطائفتان من أهل الإيمان ـ إن شاء الله ـ فقد تقتتل طائفتان من أهل الإيمان كما ذكر الله سبحانه وتعالى. وقال رسول الله ﷺ للحسن بن علي رضي الله عنهما: (إن ابني هذا سيّد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين)[2]. وليس كما وصف المغرضون فطعن فريق بهذه وآخر بتلك.

---

(١) جندب بن عبد الله بن الأرقم الأزدي الغامدي..

(٢) رواه البخاري ٢٧٠٤.

بعد أن قضى عليّ ﷺ نحبه شهيداً اتجه الناس إلى الحسن بن عليّ[1] ﷺ فبايعوه، فقام بالأمر ﷺ ولكنه رأى ضرورة اتفاق الأمة، والعودة إلى رفع راية الجهاد، والدعوة إلى الله، ونشر الإسلام، وهو ﷺ من أهل الرأي والعلم فهو وشقيقه الحسين ﷺ، سيدا شباب أهل الجنّة كما قال رسول الله ﷺ، فآثر الصلح والاتفاق، ودعا معاوية ﷺ إلى ذلك فوافق، فتنازل الحسن ﷺ لمعاوية ﷺ وذلك في خمسٍ وعشرين من شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من هجرة رسول الله ﷺ.

قام معاوية بالخلافة، واطمأنت الأمة، وارتفعت راية الجهاد، وعادت الدعوة إلى الانتشار، والدولة إلى الاتساع حتى جاء أمر الله وانتهت حياة معاوية ﷺ سنة ستين للهجرة، وكذا انتهى الخلفاء من صحابة رسول الله ﷺ وكان لكل خليفةٍ من هؤلاء الخلفاء الذين تسلّموا هذه الأمانة صلة نسبٍ مع رسول الله ﷺ.

---

(١) الحسن بن علي: ولد في شهر شعبان من السنة الرابعة للهجرة، أمه فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ وتوفي ﷺ في شهر ربيع الأول سنة ٤٩هـ، وصلى عليه عامل المدينة المنورة سعيد بن العاص.

تزوّج رسول الله ﷺ عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

وتزوّج رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر الفاروق رضي الله عنهما.

وتزوّج رسول الله ﷺ أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان(١)، أخت معاوية رضي الله عنهم.

وتزوّج عثمان بن عفان رضي الله عنه رقية بنت رسول الله ﷺ وأمها خديجة بنت خويلد، وهاجرا معاً إلى الحبشة، ورجعا معاً رضي الله عنهما، ثم هاجرا معاً إلى المدينة، وتوفيت رقية رضي الله عنها في المدينة في السنة الثانية من الهجرة أثناء غزوة بدر، وعمرها سبع وعشرون سنةً رضي الله عنه.

---

(١) أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان: كانت زوجة عبيد الله بن جحش ابن عمة رسول الله ﷺ، وقد هاجرت مع زوجها إلى الحبشة، وهناك ارتدّ زوجها ففارقته، وبقيت في الحبشة فطلب رسول الله ﷺ من النجاشي أن يخطبها له ففعل، وأرسلها مع شرحبيل بن حسنة الذي كانت معه أمه، ولما عادت إلى المدينة تزوجها رسول الله ﷺ ولم تُنجب منه. وقد عاشت بعد رسول الله ﷺ ،وتوفيت في خلافة أخيها معاوية سنة ٤٤هـ. روت خمسةً وستين حديثاً لرسول الله ﷺ، اتفق البخاري ومسلم على حديثين، وانفرد مسلم بحديثين.

وتزوّج عثمان بن عفان ﷺ أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ وأمها خديجة بنت خويلد ﷺ، فهي شقيقة رقية ﷺ، تزوجها بعد وفاة أختها. وكانت رقية ﷺ قد أنجبت لعثمان ابنه عبد الله غير أنه توفي بعد أمه بشهرين. تزوج عثمان ﷺ أم كلثوم ﷺ في شهر ربيع الأول سنة ثلاثٍ للهجرة، ولم تُنجب له، وتوفيت ﷺ في شهر شعبان سنة تسعٍ للهجرة، وبذا تكون قد عاشت اثنتين وثلاثين سنةً، وبقيت عند عثمان ﷺ ست سنواتٍ وخمسة أشهر.

وتزوّج عليّ ﷺ فاطمة بنت رسول الله ﷺ وأمها خديجة بنت خويلد ﷺ وقد وُلدت قبل البعثة بخمس سنواتٍ، وبذا تكون أصغر من عليٍّ ﷺ بخمس سنواتٍ.

تزوّج عليّ ﷺ فاطمة ﷺ في شهر ذي القعدة من السنة الثانية للهجرة أي بعد معركة بدرٍ بشهرٍ ونصف الشهر، وأنجبت له الحسن، والحسين، ومحسناً، وأم كلثوم الكبرى، وزينب الكبرى. وتوفيت ﷺ ليلة الثلاثاء لثلاثٍ خلون من شهر رمضان سنة ١١هـ، وهي ابنة تسعٍ وعشرين سنةً، وكانت وفاتها بعد وفاة رسول الله ﷺ بستة أشهرٍ. وما تزوّج عليّ ﷺ ولا

تسرّى وهي على قيد الحياة رعايةً لها. فلما ماتت تزوج وتسرّى حيث تزوج بعدها ثمان زوجاتٍ.

وتزوّج عليّ ﷺ أمامة بنت أبي العاص بن الربيع[1]، وأمها زينب بنت رسول الله ﷺ شقيقة فاطمة، رضي الله عنهم جميعاً. وقد أنجبت أمامة ﵄ لعليّ ﷺ ابنه محمد الأوسط.

الخلافة الأموية:

عهد معاوية ﷺ بالخلافة من بعده لابنه يزيد نتيجة الأحداث التي جرت، وغدت الخلافة بعد ذلك وراثيةً، وأخذ الضعف يدبّ في أنحاء البلاد نتيجة ضعفٍ ذاتي بسبب التساهل في المبادئ الأساسية والتهاون بالالتزام في المنهج، هذا إضافةً إلى ضعفٍ ثانٍ بسبب عمل معاول الهدم من الداخل والنخر باستمرارٍ من قبل جماعاتٍ داخل المجتمع تُظهر الإسلام وتُبطن غيره ـ والله أعلم ـ لتتمكّن من العمل

---

(١) أمامة بنت أبي العاص: ٣تزوج بها عليّ ﷺ في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ وتوفي عنها عليّ ﷺ، وعاشت بعده فتزوجها المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي، وتوفيت عنده في خلافة معاوية بن أبي سفيان ﵄، وأنجبت للمغيرة ولده يحيى..

دون الانتباه إليها، وهذا ما كان يُسبّب زيادة الضعف واستمراره مع فتنٍ وحركاتٍ، ولكن هناك فرق بين خليفةٍ وآخر فمن يلتزم بالمبدأ، ويعمل على تطبيق المنهج، ويرفع راية الجهاد يختلف عن غيره ممن يتوانى.

استمرت الخلافة الأموية حتى سنة ١٣٢هـ حيث قضت عليها الدعوة إلى بني العباس، وأقامت لهم الخلافة مكان سابقيهم.

الخلافة العباسية:

ما أن قامت خلافة بني العباس وقوي أمرها واشتدّ ساعدها حتى أخذ الندم أولئك الذين دعموا أتباعها وعملوا على إقامتها حيث لم يكن هدفهم إقامة خلافةٍ قويةٍ، بل كانوا يهدفون إثارة الفتن وقتال الجماعات بعضها مع بعضٍ لتضعف الأمة وتقتل كل جماعةٍ جماعةً أخرى حتى تنتهي الخلافة ويقضون على الأمة وينتهون من الإسلام ويُعيدون مجوسيتهم وسلطان دولتهم الجاهلية، أولئكم الذين أظهروا الإسلام بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، أظهروا الإسلام ليمكنهم الهدم من الداخل، أولئك الذين أسميناهم بالماكرين.

لما رأى الماكرون قوة الخلافة العباسية وأدركوا

ما فعلوه عادوا يعملون فيها هدماً فأثاروا من البداية عليها النقمة بنبش القبور وارتكاب الجرائم، ثم أخذوا بإثارة الأحقاد والفتن بين بني العباس وبني عمومتهم الطالبيين حلفاء الأمس الذين يظهرون لهم الولاء والارتباط بهم والتبعية لهم و... إظهارَ مكرٍ وتخطيطٍ.

توالى الخلفاء العباسيون وكانوا في بداية أمرهم أقوياء وخلافتهم قويةً ثم أخذ النخر يدبّ في الدولة ومن يتسلّمها بالسعي وراء الدنيا، والخلافات فيما بينهم، وضربات معاول الماكرين حتى كان منتصف القرن الثالث الهجري تقريباً حيث طغى سلطان الدنيا وقتل الابن أباه في سبيل السلطة وذلك سنة ٢٤٧هـ حيث قتل محمد المنتصرأباه جعفر المتوكل وتسلّم الخلافة بعده.

تضعضعت أركان الخلافة وضعف أكثر الخلفاء وقد ظهر بعضهم من كان ذا عزيمةٍ وصدقٍ والتزام كالمعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ) رحمه الله غير أنهم قلة.

وأخيراً وصل البويهيون إلى إمكانية السيطرة على الخلافة العباسية سنة ٣٣٤هـ بجهود الماكرين الذين هم منهم، والماكرون يخالفون العباسيين انتماءً وعقيدةً إذ ما يظهرون من العقيدة يخالف ما يُبطنون ـ والله أعلم ـ فلم يبق للخلفاء سلطة ولا طاعة؛ بل وسيطر على أكثر ديار

الإسلام من يتبعهم عقيدةً أو فكراً أو هوىً من سامانيين، وقرامطة، وحمدانيين، والعبيديون أولئك الذين سمّوا أنفسهم فاطميين إذ ادّعوا الانتساب إلى أبناء فاطمة الزهراء ﵂، والله يعلم إنهم لكاذبون فما هم إلا من أولئك الذين يدّعون أنهم من نسل يعقوب بن إسحاق ﵊، إذ هم أبناء ميمون القداح. وتوقّف الجهاد نهائياً، وانصرف الجهد إلى نشر الفتن وبثّ الأكاذيب، ووصلت الخلافة إلى مرحلةٍ كبيرةٍ من الضعف.

ودبّت الحماسة عند بعض الجماعات، وظهرت فكرة الجهاد، وتمت الحركة، وبرز السلاجقة فأطاحوا بالبويهيين، وسيطروا على الخلافة العباسية فعادت لها بعض الهيبة التي فقدتها، وظهرت الحماسة للجهاد، والتقى السلاجقة مع الروم، فهُزم الروم هزيمةً منكرةً لم تنزل بهم منذ مدةٍ طويلةٍ وذلك سنة ٤٦٣هـ فخابت آمالهم وطاشت أحلامهم حيث كانوا يتوقّعون اقتراب نهاية الخلافة فإذا بها تعود على الساحة العالمية فصُعقوا وارتفعت صيحاتهم ودوّى صداها في أوربا وقام الرهبان يُثيرون الناس فهبّوا مندفعين نحو ديار الإسلام وقصدوا بيت المقدس واستطاعوا احتلال بعض المواقع التي في طريقهم، ووصلوا إلى القدس، وسقطت بأيديهم سنة ٤٩٢هـ.

أثار هذا الغزو الصليبي المسلمين فارتفعت راية الجهاد فحملها آل زيري والأيوبيون واستطاع صلاح الدين الأيوبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يُحقّق النصر وأن يُنقذ بيت المقدس من أيدي الصليبيين في ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ، ولم يكن صلاح الدين الأيوبي سوى كبير إمارةٍ من إمارات الخلافة، وبذا عاد للخلافة شيء من الهيبة وذلّ الصليبيون، واطمأن الناس في ديار الإسلام وعاد لهم الشعور بأهمية الخلافة.

رجع الناس بالانصراف إلى دنياهم ومنهم رجال الولايات فعاد الصراع على السلطة حتى سيطر مماليك الأيوبيين على مواقع ساداتهم ومواليهم، وحكموا مصر، فرجعت أطماع أعداء الإسلام من مختلف اتجاهاتهم وعقائدهم فتأهبوا للعمل فبدأت المعاول في الداخل تضرب بالأركان، وجيوش الصليبيين تستعدّ، وترسل أفواجاً من النساء كوسائل عندها إلى الوثنيين في المشرق وهم المغول، ليؤدّين دورهنّ في إثارة المغول للهجوم على ديار الإسلام من جهة الشرق، وتغرينهم على ذلك.

سقوط الخلافة:

طال انتظار الماكرين كي تعمل معاولهم فلم يُجد

الانتظار ولم تعمل المعاول، ووضع يهود مكرهم وقدّموا خبثهم فلم يُفدهم مكر، ولم ينفعهم خبث، وبذل الصليبيون إمكاناتهم فدفعوا جندهم إلى الملاحم وأموالهم للسلاح فلم يجنوا سوى فقدان الأبناء وخسارة الأموال. فالمخططون حائرون، والمقاتلون غرباء بعيدين عن الأهل والوطن يشكون، وهذا كله في حال ضعف المسلمين وتجزؤ ديارهم، ولكن إذا ارتفعت راية الجهاد وانطلق المجاهدون يطلبون النصر من الله ويرجون الشهادة في سبيل الله فما أن يكون اللقاء حتى يولّي الأعداء الأدبار مع كثرتهم، وتتناثر أشلاؤهم في العراء، وتدوسها سنابك خيل المسلمين، وتعلو كلمة «الله أكبر» فتدوّي في عنان السماء.

وظهرت قوة المغول الوثنيين في مشرق ديار الإسلام، وظهرت معها أحلام إخوانهم من المنافقين وأهل الكتاب ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحشر: ١١] فأسرع المحركون المنافقون فمدّوا أيديهم إلى المغول الوثنيين وكانوا أداةً بيدهم، وعيناً لهم، وهرول الصليبيون فبعثوا بنسائهم حليلاتٍ وخليلاتٍ مُحرّضات ومُغريات، وكان اليهود أكثر من الفئتين السابقتين مكراً، وأشدّ دهاءً،

وأعمق خُبثاً إذ لم يعرف دورهم، ولم يعلم أسلوب دعمهم.

دخل المغول بغداد قاعدة الخلافة يوم الثلاثاء السادس من شهر صفر سنة ٦٥٦هـ، وبقوا أربعين يوماً يقتلون ويهدمون ويحرقون، وكان ذاك نكبةً فادحةً وبلاءً حلّ بالمسلمين. وفرح أعداء المسلمين بذلك فرحاً عظيماً ما فرحوا بمثله منذ قامت دولة الإسلام، وما ذاك الفرح إلا لأنهم شعروا أن سقوط قاعدة الخلافة ما هو إلا تجزئةٌ لديارهم، وتفرقةٌ لأمصارهم، وضعفاً لأمتهم وفي الوقت نفسه عودة لنفوذ اليهود، ولقوة الروم النصارى، ومجال لرجعة المجوسية، ولكن خابت آمالهم، وذهبت أحلامهم ـ ولله الحمد ـ.

ذكرنا عبارة معاول الهدم عدة مراتٍ دون أن نُعرّفها أو نلقي عليها ضوءاً وأرى من المهم بذلك للدور الذي فعلته هذه المعاول.

معاول الهدم:

كانت عدة قوى في جزيرة العرب وحولها عندما قامت دولة الإسلام، وهذه القوى هي:

١" ـ قوة الشرك:

وتتمثّل في قريش والقبائل في الجزيرة، وقد انتهت قوة قريش بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، إذ دانت بالإسلام. وكذا انتهت قوة بقية القبائل حيث دانت أيضاً بالإسلام بعضها في عهد رسول الله ﷺ وما بقي منها ففي بداية العهد الراشدي، وبذا لم تبق قوة للشرك الذي كان سائداً في جزيرة العرب.

٢" ـ قوة النصارى:

وتتمثّل في دولة الروم شمال وغرب جزيرة العرب، ودولة الروم أحدى دولتي العالم الكبريين: هي ودولة الفرس. هذا بالإضافة إلى بعض النصارى في جزيرة العرب مثل مدينة نجران. أما النصارى فقد أخرجوا من جزيرة العرب أيام الفاروق رضي الله عنه عن جابر رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لئن عشت لأُخرجنّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أترك فيها إلا مسلماً».

وعن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال: آخر ما تكلّم به رسول الله ﷺ: «أخرجوا يهود أهل الحجاز

وأهل نجران من جزيرة العرب»[1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: آخر ما عهد رسول الله ﷺ أن قال: «لا يُترك بجزيرة العرب دينان»[2].

وشُغل الصديق رضي الله عنه بحروب الردّة ومانعي الزكاة عن إخراج اليهود، فأمضى معاملة يهود على ما كان يعاملهم عليه رسول الله ﷺ حتى توفي، ثم أقرّ الفاروق رضي الله عنه تلك المعاملة صدراً من خلافته، حتى بلغه قول رسول الله ﷺ في وجعه الذي قبضه الله فيه: «لا يجتمع بجزيرة العرب دينان». ففحص عمر عن ذلك فلما بلغه التثبّت، أرسل إلى يهود، فقال: إن الله قد أذن في جلائكم، قد بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «لا يجتمع بجزيرة العرب دينان» فمن كان عنده عهد من رسول الله ﷺ لليهود فليأتني به، أُنفّذه له، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ فليتجهّز للجلاء، فأجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ منهم[3].

وأخرج الفاروق رضي الله عنه أهل نجران بعد أن نقضوا العهد، وأكلوا الربا، وكتب لهم: بسم الله الرحمن

---

(١) رواه أحمد والبيهقي والدارمي.

(٢) رواه أحمد.

(٣) سيرة ابن هشام.

الرحيم. هذا ما كتب به عمر أمير المؤمنين لأهل نجران من سار منهم إنه آمن بأمان الله لا يضرّه أحد من المسلمين، وفاءً لهم بما كتب لهم رسول الله ﷺ وأبو بكر، أما بعد: فمن مرّوا به من أمراء الشام وأمراء العراق فليُوسِّعهم من حرث الأرض، فما اعتملوا من ذلك فهو لهم صدقة لوجه الله، وعقبة لهم مكان أرضهم لا سبيل عليهم فيه لأحدٍ ولا مغرم، ومن حضرهم من رجلٍ مسلمٍ فلينصرهم على من ظلمهم، فإنهم أقوام لهم الذمّة. وجزيتهم متروكة عنهم أربعةً وعشرين شهراً بعد أن يُقدموا، ولا يكلّفوا إلا من صنعهم البُرّ، غير مظلومين ولا مُعتدى عليهم. شهد عثمان بن عفان، ومعيقيب بن أبي فاطمة[1].

ونزل بعض نصارى نجران بناحية الكوفة، وأسموا بلدتهم النجرانية.

ولما ولي علي بن أبي طالب رضي الله عنه الخلافة أتوه، فقالوا: ننشدك حظك بيمينك، وشفاعتك لنا عند نبيّك إلا أقلتنا. فقال: إن عمر كان رشيد الأمر، وأنا أكره خلافه.

---

(١) طبقات ابن سعد، وفتوح البلدان.

وأما دولة الروم النصرانية فقد وقفت في وجه الدعوة الإسلامية، وحثّت عمالها الغساسنة في الشام على التعدّيات على المسلمين والهجوم عليهم غير أنهم فشلوا ودُحروا، ودعمهم سادتهم الروم فما أصابوا سوى الهزائم والخسران.

وانطلقت الجيوش الإسلامية لنشر الدعوة والفتوحات والتقت بجيوش الروم الجرارة وقواتهم المدرّبة على القتال، والمنتصرة في كبريات المعارك، والتي هي ذائعة الصيت في إمكاناتها واستعداداتها وانتصاراتها ولكنها لم تثبت أمام المجاهدين المسلمين بل كانت تولّي الأدبار وتترك وراءها أشلاء القتلى وتتخلّى عن الأرض لا تُبالي إلا بالنجاة من الموت. وكانت النتيجة الهزيمة والاندحار لدولة الروم وجيوشها، والخروج والتخلّي عن مصر والشام وجزء من بلاد الأناضول، وأن تقبع السادة والقوات في جحورها تنتظر الفرصة المناسبة لتغتنمها ـ إن جاءت ـ.

طال الانتظار وما جاءت فرصة الثأر والانتصار بل الهزيمة والاندحار والتراجع باستمرار فما رأوا غير الهدوء والاعتبار، ولكن إذا أحسوا بقوةٍ في أنفسهم قاموا بتعدّيات لإحساس الآخرين بوجودهم، وإن عادوا

بالاستيلاء على بعض القطعان، وإذا شعروا بضعفٍ بعدوّهم قاموا بشنّ غارةٍ لإثبات الوجود والرجوع باختطاف بعض المزارعين عسى أن يُفادوا بهم بعض رجالاتهم. واستمرّ الوضع على هذه الحال مدةً وقد يشتدّ الأمر فيكون اللقاء ويقع القتال وغالباً ما يعود الروم بالوبال، وقد يفرّوا ويقوم السكان بالإفادة من أراضيهم واستثمارها.

كان الروم يحرصون ألا يُثار المسلمون فيُنادى بالجهاد فإذا انطلق المجاهدون لم يقف أمامهم جيش ولم تثبت في وجههم قوة حيث يطلبون الشهادة في سبيل الله بصدقٍ وحماسةٍ ومن طلب الموت وُهبت له الحياة فحقّق النصر وعاش فائزاً، والروم يعرفون بل الجميع يعرف أن جندهم يطلبون الحياة، ومن يطلب الحياة يُولّي الأدبار لتوهب له النجاة. فإن أكثر ما يُرهب أعداء الإسلام رفع المسلمين لراية الجهاد، فإذا كان الجهاد ارتفعت معنويات المسلمين وزادت حماستهم، وانهارت معنويات الأعداء وارتعدت فرائصهم لما يرون من شجاعة المسلمين وإقدامهم.

وهذا يعني أن الروم النصارى لم يكن لهم دور في معاول الهدم من الداخل ؛إلا ما كان في وقتٍ بعد

ذلك بصلتهم بإخوانهم النصارى من أهل الذمة في ديار الإسلام وإثارة بعض الفتن وبثّ بعض الشائعات.

٣" ـ قوة اليهود:

ذلّ اليهود بقيام دولة الإسلام إذ انتهى نفوذهم المادي حيث زال كسبهم الربوي، كما زال ما تناله فتياتهم من البغاء وزال شموخهم إذ انتهت الفتن التي كانوا يثيرونها والخلافات التي يوقعونها بين القبائل، وهُزموا أمام المسلمين فأُجلي بنو قينقاع عن المدينة بعد معركة بدرٍ، وأُجلي بنو النضير عن المدينة بعد معركة أُحدٍ إثر محاولة غدرٍ قاموا بها، وانتهى وجود بني قريظة إثر خيانتهم. وخنع يهود خيبر بعد هزيمتهم في مدينتهم، وصالح يهود فَدَك بعد هزيمة يهود خيبر، وهُزم يهود وادي القرى واستسلموا، وطلب يهود تيماء قبولهم دفع الجزية واعتبارهم من أهل الذمة فأُعطوا ذلك.

وانتقل رسول الله ﷺ من الحياة الدنيا، وبويع الصديق رضي الله عنه خليفةً له، وشُغل بقتال المرتدين ومانعي الزكاة. وجاء الفاروق رضي الله عنه فأخرج يهود خيبر إذ اعتدوا على المسلمين، فقام في الناس خطيباً، وقال: من كان له مال بخيبر فليلحق به، فإني مخرج يهود، فأخرجهم.

وقُوّمت أملاك يهود في المدينة، وأُعطوا نصفها وأُجلوا، ولقد أعطاهم الفاروق قيمة ما كان لهم من الثمر، والمال، والإبل، والعروض من أقتابٍ وحبالٍ وغير ذلك، ولم يبخسهم حبة خردلٍ بل تغاضى عن بعض ما أخذوه خفيةً.

ودفع الفاروق ﷺ أيضاً ليهود فَدَك نصف مالهم بعد أن قُوّم وأجلاهم إلى الشام.

كان عدد اليهود قليلاً بالنسبة إلى المجموعات الأخرى، وقد ذُلّوا بما أصابهم بما جنته أيديهم وما دفعتهم إليه أطماعهم فلم يستطيعوا المواجهة ولم يمكنهم المقاومة إضافةً إلى ما عُرفوا به من جبنٍ وما طُبعوا عليه من ذلّ.

كان اليهود يُحرّضون أصحاب المصالح والأطماع وأهل الأهواء والرغبة في العلو، ويُخطّطون لهم، ويرسمون لهم العمل الذي يجب أن يقوموا به بالخفاء، وما يجب أن يظهروا به وما يبطنونه، وإن غالبية الفرق الباطنية إنما ترجع في جذورها إليهم. وهي أسلوبهم في معاول الهدم.

ومن أول معاولهم عبد الله بن سبأ المعروف بـ(ابن السوداء) وهو من يهود اليمن انتقل إلى الحجاز، وأظهر

الإسلام، وتنقّل في الأقاليم والبلدان يلتقي بالعامة وأصحاب الأهواء، فيطرح أفكاراً خارجةً على الشرع، وفيها كفر صريح، فتبعه أناس بأفكاره ونُسبوا إليه، فيقال لهم (السبئية)، ومن بدعه (ألوهية عليّ)، و(عودة محمد ﷺ)، فكان يقول: محمد أفضل من عيسى، والعجب بمن يقول بعودة عيسى ويُصدّق بها ويُنكر عودة محمد. وقد أخذ عنه بعض أصحاب المعاول كثيراً من أقواله وتبنّوها وأشاعوها.

٤" ـ قوة المجوس:

كانت دولة فارس تدين بالمجوسية، وهي ودولة الروم كُبريتا دول العالم، وقد وقفت في وجه الدعوة الإسلامية، وعملت على الإثارة على الإسلام إذ دفعت المرتدّين ودعمتهم، وشجّعت مانعي الزكاة وأمدتهم.

فلما انتهى الصديق رضي الله عنه من قتال المرتدين ومانعي الزكاة سيّر الجيوش إلى دولة فارس، فانتصرت الجيوش الإسلامية على جيوش دولة الفرس في عدة مواقع.

وكذا انتصر المسلمون في خلافة الفاروق رضي الله عنه على الفرس في عدة معارك، ومنها معركة القادسية التي كان عدد الفرس فيها يزيد على مائةٍ وعشرين ألف

مقاتل، وفتح المسلمون جلولاء، وحلوان، وتكريت، والموصل، والأهواز، ثم كانت معركة نهاوند وكانت قوة المسلمين لا تزيد على الثلاثين ألفاً إلا قليلاً على حين كانت قوة الفرس تزيد على مائة وخمسين ألفاً، وانتصر المسلمون نصراً مؤزّراً وقتلوا من الفرس أكثر من مائة ألف رجل، وأمر الفاروق ﷺ الجيوش الإسلامية إثر هذه المعركة بالانسياح في بلاد فارس، فتمّ فتح فارس، ومكران، وسجستان، وخراسان، وجرجان، وطبرستان، وطخارستان، وكردستان، وأذربيجان، وداغستان، وتمّت هذه الفتوحات كلها في عهد الفاروق ﷺ وأُزيلت دولة الفرس الأكاسرة من جذورها.

وانتصر المسلمون في خلافة ذي النورين ﷺ إذ غزا المجاهدون البلدان التي نقضت العهد وتغلبوا عليها، وألزموا أهلها بالعودة إلى العهد، ومنها أذربيجان، والريّ، وخراسان، والجوزجان، وقُتل يزدجرد ومن كان معه في مرو.

أقبل سكان دولة الفرس وأهل البلدان المجاورة الأخرى على الإسلام ودانوا به والتزموا به غير أن بعض رجال سلطان دولة الفرس السابقين وبعض رهبان

المجوسية قد صعب عليهم النزول عن مواقعهم والتخلّي عن مكانتهم فامتلأت قلوبهم حقداً على من أزال سلطانهم وقضى على مجوسيتهم، ولكن ما العمل؟ إذ انتهى سلطانهم وزالت مكانتهم إذ أصبح أتباعهم مسلمين، وصار حاجز العقيدة يفصل بينهم، فرأوا اللجوء إلى الحيلة بإخفاء ما في النفس فأظهروا الإسلام بألسنتهم ولم تُؤمن قلوبهم وذلك ليبقوا على صلةٍ مع رعاياهم سابقاً فيمكنهم اللقاء بهم، وتلقينهم ما يريدون، وبثّ الافتراءات المخالفة للإسلام في سبيل التهديم في العقيدة وإثارة الفتن لإضعاف الأمة عسى أن تعود الدولة الجاهلية والعقيدة المجوسية ويعود لهم سلطانهم وللدهاقنة نفوذهم، ومما بدؤوا ببثّه أقوال عبد الله بن سبأ التي أخذوها عنه.

وفي سبيل إيقاع الخلاف في المجتمع الإسلامي عملوا على إحياء العصبية الجاهلية، وكان بنو أمية قد تسلّموا الخلافة وصارت وراثيةً فيهم فصنّفوهم في طرفٍ، وصنّفوا بني هاشمٍ في طرفٍ آخر لما كان بين الطرفين من منافسةٍ في المرحلة الجاهلية، وبثّوا الشائعات التي تضع من مكانة بني أمية وهم الخلفاء، وفي هذا طعن بالخلافة ومن يتبعها، وفي الوقت نفسه

رفعوا بعض رجال بني هاشم فوق مستوى البشر وفي هذا إفساد في العقيدة، وادّعوا أنهم من أنصار بني هاشم ليكسبوا تأييداً وليكون لهم رصيد شعبي لأن بني هاشم أسرة رسول الله ﷺ، فلها مكانة عالية ومنزلة رفيعة فيمكن كسب الناس إلى جانبهم ضدّ أصحاب السلطة وتحقيق النصر عليهم وفي هذا إثارة للفتنة وتفرقة للأمة وإضعافها.

لو كان عند هؤلاء الماكرين قليل من الرغبة في العمل للإسلام أو شيء من الصدق لانتقدوا الحكم الوراثي ودعوا إلى الشورى لنالوا شيئاً من الأجر ولحصلوا على بعض ما يريدون، لكنهم كانوا يدعون إلى إزاحة أسرةٍ عن الخلافة وتسليم أسرةٍ غيرها وفي هذا ما يكفي لعدم تجاوب المجتمع معهم بل والنفور منهم ومن ادّعاءاتهم وهذا من أسباب فشلهم، وقد عرف الناس أهدافهم.

أخذ هؤلاء الماكرون يبثّ التحريض على بني أمية وخلافتهم والدعوة لبعض رجالات الأمة الأعلام من آل البيت، ومنهم: الحسين بن علي رضي الله عنهما في أول الأمر، وزيد بن علي زين العابدين بن الحسين فيما بعد.

كان يذهب وفد منهم إلى أحد الأعلام من آل البيت في مكة أو المدينة ويُزيّنون له الانتقال معهم إلى

العراق وأن المجتمع بأشدّ الحاجة إليهم وأنه معهم فإذا نجحوا في المهمّة وسار إليهم أحد الأعلام أشاعوا الخبر أيضاً في العراق وأن فلاناً قادم لأخذ البيعة بالخلافة ويصل الأمر إلى الوالي فيستعدّ للحيلولة دون ذلك خوفاً من حدوث فتنةٍ، ثم إنه لا يصحّ وجود خليفتين في وقتٍ واحدٍ فإذا بويع لخليفة في العراق مع وجود خليفةٍ في الشام انقسمت الأمة إلى فريقين وربما وقع صدام بينهما ولا يعرف عاقبة ذلك إلا الله سبحانه وتعالى، لذا فالوالي يستعدّ للحيلولة دون ذلك ومحاولة العمل لرجوع القادم مع تقديره له واحترامه لمكانته ونسبه. ويكون الماكرون من ناحيةٍ ثانيةٍ قد حشدوا بعض الأعوان وساروا لاستقبال القادم فإذا التقوا به استقبلوه أحسن استقبال وأبدوا له الخضوع والطاعة والتأييد وأنهم جنده المخلصين وطليعة عسكره الصادقين بل إنهم مواليه وعبيده، طلباته لا تُردّ وأوامره لا تُخالف وأحكامه لا تُعصى فهي وفق الشريعة فهو المنفّذ لأحكام الدين ومنه يُستقى العلم، ومن آله منبعه.

فإذا ما التقوا بجموع الوالي أبدوا الاستعداد للقاء ثم لم يلبثوا أن يتخلّوا عن ضيفهم ويرحلوا عن جمعه خوفاً على أنفسهم وخشيةً من غضب الوالي فيما بعد.

ولا يمكن لهذا الضيف العلم أن يستسلم أو يفرّ فيلقى مصرعه صابراً، فإذا ما انتهى الأمر أظهر الماكرون النواح والعويل على رجل عصره سليل الأسرة النبوية، وتكلموا عن الخلافة عامةً وطعنوا فيها، وبثّوا الأكاذيب عن الخليفة وذلك لإثارة الفتنة، بل جعلوا للحادثة ذكرى سنويةً يندبون فيها ذلك الشهيد من أجل التذكير به وبمصرعه من أجل إثارة الفتنة. وهكذا لقي الحسين بن علي ﷺ حتفه، وكذا زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي. فالماكرون هم الذين سلّموا من دعوا، إذن قد غدروا به وخانوه، ولو كانوا يحبّونه لفدوه بأرواحهم غير أنهم هم الذين تخلّوا فهم إذن غير صادقين فيما يظهرون من حبٍّ، غير صادقين في دعواهم ويبدو بوضوحٍ أنهم يعملون لإثارة الفتنة، وهذا هدفهم الأول لإضعاف الأمة الإسلامية في محاولةٍ لإعادة دولتهم الجاهلية ومجوسيتهم الوثنية.

شعر الماكرون بخيبة الأمل بعد أن باءت محاولاتهم بالفشل، وأخذوا يفكرون بالعمل وإذ تصل إليهم الأخبار أن هناك دعوةً سريةً لبني العباس فبحثوا عن الدعاة فعرفوهم بعد جهدٍ فساروا إليهم وقدّموا أنفسهم وعرضوا إمكاناتهم فقُبلوا في عداد أفراد الدعوة

بعد اختبارٍ، ودخلوا مجال العمل وأبدوا نشاطاً وتركوا الطالبيين الذين يعدّونهم ساداتهم، وهذا يدلّ على عدم صدقهم فيما يدّعون فهم عبيد أهدافهم التي هي إضعاف الأمة الإسلامية وإعادة مجوسيتهم وسلطانهم القديم فمن يعمل في هذا المجال أو يمكن تسخيره لذلك فهم عبيد له ويمشون وراءه ويسعون لمصلحته وإبراز مكانته ورفع سلطانه.

نجحت الدعوة العباسية، وتجهّزت جيوشها وسارت نحو الشام بعد انتصاراتٍ حقّقتها في عدة مواقع، كما أحرزت انتصاراتٍ أخرى، وكانت القوات العباسية المنطلقة إلى الشام تضمّ أعداداً كثيرةً من الماكرين، وقائدهم منهم، ونظروا في تقدّمهم ورأوا طاعة المجتمع لرجال الخليفة العباسي الجديد، فتوقّعوا قوةً كبيرةً للعهد القادم فحلّ بهم الندم ونزل بهم الألم على ما أقدموا عليه، فهم يريدون الخلاص من خلافةٍ قويةٍ فإذا بهم قد سعوا في قيام خلافةٍ أكثر قوةً فيرون أن الحلّ السليم هو العمل لإضعاف هذه الخلافة التي أقاموها قبل أن يشتدّ ساعدها والعمل لإثارة المجتمع الإسلامي عليها قبل أن يدين بالطاعة ويُعطي الولاء، ورأوا أن يقوموا بأعمالٍ شاذةٍ تنفّر الناس منهم وتجعل

نفوس الأهالي تشمئز من تلك التصرّفات، ولما كانوا يتقدّمون باسم الخلافة الجديدة فإن النقمة ستكون عليها وينظرون إليها نظرةً خاصةً تُبعدهم عنها وتملأ قلوبهم الكراهية لها فأخذوا في نبش القبور، قبور الخلفاء السابقين وأهليهم، والقتل الجماعي دون سببٍ، والقيام بالإساءة وقد فعلوا ذلك بغطرسةٍ وجبروت فتألّم المسلمون تألّماً شديداً، وكرهوا القادم الجديد، وعادوا يذكرون الذي مضوا بخيرٍ إذ لم يجر في أيامهم مثل هذه الأعمال ومثل هذا الجبروت الذي لم يعرفه المسلمون.

وجد خلاف بين رجال الحكم العباسي الجديد وبين الماكرين الذين كانوا بعض رجالهم، وحدثت بعض الأحداث من أحد كبار الماكرين الذي كان قائد الجيش الذي انطلق إلى الشام يتابع الأمويين. ونتيجة هذا الخلاف فقد تخلّى الماكرون عن الخلافة الجديدة ورجالها، ورجعوا إلى مواليهم السابقين من الطالبيين. وهذا ما يُؤكّد أن دفعهم للطالبيين والسير وراءهم محرّكين ومحرّضين لم يكن لمصلحة الطالبيين، كما لم يكن حباً وولاءً لهم؛ بل كانت الغاية إثارة الفتن لإضعاف الأمة المسلمة في سبيل الوصول إلى هدفهم وهو العودة إلى سلطانهم الجاهلي القديم وإعادة

عقيدتهم المجوسية، لذا فقد تخلّوا عنهم عندما لم يتحقّق هدفهم، وللسبب نفسه اتجهوا إلى العباسيين وتركوا سادتهم السابقين الطالبيين.

رأى الماكرون أن الخلافة العباسية قامت قويةً وهي حامية للأمة عاملة على رفع مكانتها سائرة على نهجها الإسلامي، إذن لا يمكن لهم العمل على تحقيق هدفهم لضعفهم أمام الخلافة بل إن رجالها قد أخذوا في تقليم أظافر الماكرين لذا فقد تخلّوا عنهم، ورجعوا إلى مواليهم السابقين لاستمرار العمل ضمن مخططهم للسعي وراء هدفهم بل هناك رجال منهم قد قطعوا الفيافي حتى وصلوا إلى الأندلس لتحريض الأمويين هناك وإثارة الفتن بين الفريقين في سبيل إضرام نيران الحروب فلم يحصلوا إلا على خيوطٍ رفيعةٍ. كما جال رجال منهم وطافوا في ديار الإسلام للالتقاء ببعض رجال بني أمية للغرض نفسه فلم يصلوا إلى غايتهم من هذا الجانب إذ عُرف دورهم عند بعض النابهين، فقبعوا في مكانهم وعادوا إلى مواليهم السابقين لإشعال نار الفتنة بين العباسيين والطالبيين وكلاهما من بني هاشم ومن آل بيت رسول الله ﷺ الذين يدّعون العمل لهم محبةً وولاءً، والله يعلم إنهم لكاذبون، وكل ما يفعلون

يُظهر كذبهم بل كأنه يصرخ انتبهوا أيها المسلمون إلى ما يُخطط لكم.

رجع الماكرون إلى الطالبيين وأخذوا بإثارة الفتن بين العباسيين والطالبيين لإضعاف الأمة. وركّزوا على ذكريات النواح والعويل، واللطم والضرب، فكانت تحدث فتن وتقع صدامات غير أنها كانت محليةً وغالبها في بغداد، ولا تلبث أن تزول وإن كانت تبقى حزازات في النفوس من نتائج الصدامات وما يقع من جراحاتٍ وربما وقعت ضحايا.

وقد رُسمت مخططات وجرت تحركات واستطاع البويهيون أخيراً السيطرة على الخلافة العباسية مع بقاء الخلفاء في مواقعهم والبويهيون من أحفاد يزدجرد وقد أظهروا الإسلام بألسنتهم، وتسمّوا بأسماء أهله، وادّعوا أنهم يوالون الطالبيين ويقومون بالدعوة لهم، وانتقلوا إلى منطقة الديلم وعاشوا مع أهلها حتى نُسبوا إليهم، فلما قوي أمرهم استطاعوا السيطرة على الخلافة في بغداد سنة ٣٣٤هـ وأخذوا يعملون لتحقيق هدفهم، وسيطر أمثالهم في الهدف على بعض الأقاليم، فكان السامانيون في بلاد ما وراء النهر، والحمدانيون في الشام، والعبيديون في مصر وشمالي إفريقية، والقرامطة

في أجزاء من الجزيرة العربية، وهذه أمصار واسعة في ديار الإسلام، وأهدافهم متقاربة إن لم نقل واحدةً. وما أن سيطر البويهيون حتى رجعوا إلى أسمائهم فأصبحوا يسمّون أبناءهم: «رستم» و«بختيار» و«كاليجار» و«فناخسرو» و«كيخسرو» و... تلك الأسماء الجاهلية وهذا ما يدلّ على عدم صدقهم في إظهار الإسلام، وتعصّبهم لجاهليتهم، وأهدافهم البعيدة التي يرمون إليها.

لم يستطع الماكرون تحقيق أهدافهم رغم ما وصلوا إليه من مكانةٍ وما حصلوا عليه من سيطرةٍ على بقية الأمصار عن طريق إخوانهم السامانيين والحمدانيين والقرامطة وذلك أن فكرة الخلافة بقيت راسخةً في النفوس وذات مكانةٍ لدى المسلمين جميعاً يعملون على الحفاظ عليها والدفاع عنها.

وأخذ الضعف يدبّ في سلطان البويهيين إذ بدت منافسة فيما بينهم، وزال أمر السامانيين، ودال سلطان الحمدانيين، وضعف شأن القرامطة، وانتبه بعض المسلمين إلى ما يُحاك من مخططاتٍ، وما يُرسم لإضعاف الأمة الإسلامية في سبيل القضاء عليها للوصول إلى أهدافٍ يعملون لها. وظهر السلاجقة

واستطاعوا القضاء على البويهيين وحلّوا مكانهم في السيطرة على الخلافة العباسية.

بقي الماكرون يعملون ضمن مخططهم للوصول إلى هدفهم رغم الضعف الذي حلّ بهم بنزول النكبة عليهم بزوال البويهيين والسامانيين والحمدانيين غير أنهم رأوا أنفسهم في مكانهم لا يتقدّمون أبداً إن لم نقل أخذوا يتراجعون بعد الذي جرى، ولكن كيف ينسحبون من الميدان ويتخلّوا عن آمالهم، وتتراءى لهم في أحلامهم تلك الآمال وكأنها تذكّرهم بماضيهم وتدفعهم لاستمرارية العمل لعلّ الفرج يأتي.

بقي عمل الماكرين بطيئاً، وإذ تظهر قوة المغول الوثنيين فتميل النفوس نحوهم ويكون التفاهم رغم وثنية أولئك وادّعاء هؤلاء الإسلام، ويتمّ التعاون للقضاء على الخلافة الإسلامية التي يلتقي المسلمون عليها وتجمعهم وتوحّد بينهم، ولو كان ذرة من إيمانٍ في قلوب الماكرين لما حدث التعاون فكيف وهم يدّعون الإسلام!!! لقد كانت الرسل تنتقل خفيةً بين ابن العلقمي والمغول، والناس في غفلةٍ عما يُراد بهم. وابن العلقمي هو وزير الخليفة المستعصم آخر خلفاء بني العباس، وقد أشار على الخليفة بأن يُقلّل من الجند

إذ لا فائدة لهذه الأعداد الكثيرة، كما أشار بمصانعة المغول وإكرامهم عسى أن يتراجعوا عن هدفهم إذا فعلنا ذلك، وفي الوقت نفسه كان هذا الوزير يتصل مع المغول ويُشجّعهم على القدوم، ويزوّدهم بالأخبار وخاصةً العسكرية منها، وطلب منهم أن يكون نائبهم والمقدم عندهم فوعدوه بذلك.

ووقعت فتنة في بغداد سنة ٦٥٥هـ بين الماكرين ومن يتأثّر بأقوالهم عاطفةً وجهلاً وبين المسلمين وذلك بسبب ممالأة ابن العلقمي لطاغية المغول هولاكو.

وخرج ابن العلقمي برأي الخليفة لمقابلة هولاكو لتقرير الصلح فخرج وتوثّق لنفسه، ورُسمت الخطة ورجع إلى الخليفة، وقال: إن الملك هولاكو قد رغب في أن يزوّج ابنته بابنك الأمير أبي بكر، ويُبقيك في منصب الخلافة، وينصرف عنك بجيوشه مقابل طاعته، وأرى يا مولانا الإجابة إلى ذلك، فإن في هذا حقن دماء المسلمين، ويمكن بعد ذلك أن تفعل ما تريد، والرأي أن تخرج إليه. فخرج إليه في جمعٍ من الأعيان فأُنزل في خيمةٍ.

ذهب الوزير ابن العلقمي إلى بغداد واستدعى الفقهاء والأعيان ليحضروا اللقاء فخرجوا من بغداد

فضُربت أعناقهم، وأخذ يستدعي جماعةً بعد أخرى ولا تعلم جماعة منهم ماذا جرى لمن سبقهم وكلما خرجت جماعة ضُربت أعناقهم حتى انتهى العلماء والأمراء والأعيان والكبار. ثم نُصب الجسر، ودخل المغول يعملون السيف، واستمر القتل أربعين يوماً وبلغ عدد القتلى مليون إنسانٍ إذ كان قد تجمّع في بغداد عدد كبير من غير أهلها، ولم يسلم إلا من اختفى في بئرٍ أو قناةٍ.

وقُتل الخليفة المستعصم يوم الأربعاء الرابع عشر من شهر صفر سنة ٦٥٦هـ، وبمقتله انتهت الخلافة العباسية بعد عهدٍ امتدّ ٥٢٤ سنةً، حكم فيها ٣٧ خليفةً.

ورجع هولاكو إلى مقر حكمه في شهر جمادى الأولى سنة ٦٥٦هـ، وفوّض أمر بغداد إلى الأمير علي بهادور ومعه ابن العلقمي أحد الماكرين.

غياب الخلافة

سقطت بغداد قاعدة الخلافة العباسية بيد المغول الوثنيين فطار أعداء الإسلام فرحاً وامتلأت نفوسهم طرباً إذ زال المركز الذي كان يجمع المسلمين ويُوحّد بينهم، يمدّ قويّهم، ويُنجد ضعيفهم، ويُغيث منكوبهم، ويُساعد من يحتاج إلى مساعدةٍ، ويُصلح بينهم فيأخذ على يد المعتدي ويأخذ بيد المعتدى عليه، ويذود عنهم إذا دُعي إلى ذلك فيرفع راية الجهاد فيسرع المسلمون للانضمام تحت الراية يطلبون النصر من الله ويرجون الشهادة في سبيله، وتلك أماني المؤمن، ومن طلب الموت وُهبت له الحياة من العزيز الوهاب القدير الحكيم.

وضعفت معنويات المسلمين إذ امتلأت قلوبهم ألماً وطارت نفوسهم جزعاً حيث لم يعد لهم بعد الله ﷻ مرجع يرجعون إليه وسند يلجؤون إليه ومركز يُباهون به فديارهم غدت مجزّأةً في كل ناحيةٍ ملك وسلطان وفي كل جهةٍ إمارة قائمة ومصر منفصل، بينهما منافسة فلا يلتقيان، أو خلاف فلا يجتمعان، في الأندلس وشمالي

إفريقية إمارات منفصلة وملوك طوائف قائمين، وفي مصر والشام يتصارع أمراء الأيوبيين ويمتدّ صراعهم إلى الأناضول حيث تُشاركهم بذلك الصراع إمارات للسلاجقة وقد برزت قوة المماليك مكان ساداتهم الأيوبيين، ولا تبتعد جزيرة العرب مهد العرب ومنطلق الإسلام عن باقي الأمصار الإسلامية.

في هذا الوقت أفل نجم الخلافة وغاب بدرها وعمل المغول الوثنيون على تغطية المنافذ التي يخرج منها نور تلك الخلافة، وتابع المغول الوثنيون بإمرة قائدهم هولاكو تقدّمهم نحو الغرب فوصلوا إلى مدينة حلب واستولوا عليها في شهر صفر سنة ٦٥٨هـ. ثم استولوا على ميافارقين بإمرة يشموط بن هولاكو بعد أن دافع عنها أهلها دفاعاً مستميتاً لم يعرفه المغول من قبل، واستشهد صاحبها الملك الأيوبي الكامل محمد[١]، وخضع الملك الأشرف موسى[٢] صاحب

(١) الكامل محمد بن الملك المظفر غازي بن الملك العادل سيف الدين محمد بن نجم الدين أيوب بن شادي.

(٢) الأشرف موسى بن المنصور إبراهيم بن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادي، ولم تكن له سيطرة إلا على تل باشر قرب مدينة الرها.

(تل باشر) فأعطاه هولاكو إمارة حمص مكافأةً له، وكان الملك الناصر يوسف صاحب دمشق قد انتزعها منه منذ سنة ٦٤٦هـ.

زحف هولاكو نحو دمشق ففرّ منها الناصر يوسف واتجه إلى غزة فاستقبله سيف الدين قطز ومن معه، وبدأ سيف الدين قطز يتقرّب من جيش الناصر يوسف ويضمّ أمراءه إليه، حتى لم يبق مع الناصر يوسف إلا القليل فترك غزة وسار بهم إلى جنوبي الأردن حيث استقرّ قرب بلدة الجفر جانب مستنقع الجفر إلى الشرق من مدينة معان وعلى بُعد أربعين كيلاً منها ليعيش منزوياً بمن معه منعزلاً عن الأحداث التي تجري في بلاده. وعلم هولاكو بما جرى فأرسل مجموعةً من الجند إلى منطقة الجفر وأحضرت الناصر يوسف، فاستقبله هولاكو استقبالاً كريماً، ورأى فيه ضالته، فمنّاه باستلام حكم دولةٍ أيوبيةٍ تشمل مصر والشام تحت حمى المغول. وقدّمه على الأشرف موسى، حيث وجد عند الناصر يوسف إمكاناتٍ وطاقاتٍ.

حاصر هولاكو دمشق في شهر ربيع الأول سنة ٦٥٨هـ وشدّد الحصار حتى استسلمت في شهر ربيع الثاني، أما القلعة فقد صمدت في مقاومتها حتى

الحادي والعشرين من شهر جمادى الآخرة من السنة نفسها، وقد سلمت من التهديم لالتماس أعيانها لديه. واتجه هولاكو بعدئذٍ إلى أنطاكية لإنهاء وضع بلاد الشام.

وصل إلى هولاكو نبأ وفاة أخيه (مانغو) خان المغول الأعظم، لذا فقد ترك بلاد الشام بعد أن ولّى عليها مكانه القائد (كتبغا نوين) واتجه هو إلى (قره قورم) حاضرة المغول لحضور اجتماع رؤساء المغول لانتخاب الخان الأعظم لهم، وهو يطمع في أن يحصل على هذا المنصب لما قدّم من خدماتٍ في مدّ نفوذهم إلى العراق والشام وأكبر من هذا كله فإنه قضى على خلافة المسلمين أصحاب المكانة الأولى في العالم. ولما وصل هولاكو إلى مدينة تبريز بلغه خبر انتهاء اجتماع المغول، وإتمام عملية الانتخاب، واختيار أخيه (قوبلاي) خاناً أعظم للمغول، فسكت احتراماً لأخيه.

المماليك:

كان الملك الأيوبي السابع الملك الصالح نجم الدين أيوب قد استكثر من المماليك، وذلك خوفاً من اجتماع الملوك الأيوبيين عليه وخاصةً عمه إسماعيل، وقد نُسب هؤلاء المماليك إليه ـ كالعادة ـ

فهم المماليك الصالحية، وقد أعطى هذا الملك الحرية لمماليكه هؤلاء حتى ضجّ الناس منهم، فاضطر أن يُبعدهم عن السكان، فبنى لهم قلعةً خاصةً في جزيرة الروضة وذلك سنة ٦٣٨هـ، واتخذ من هذه القلعة مقراً لحكمه، وقد عُرف هؤلاء المماليك «البحرية» فصاروا يحملوا لقبين: «الصالحية» و«البحرية». وقد يُطلق اسم البحرية أيضاً على المماليك الذين يُجلبون مما وراء البحار وخاصةً الصقالبة الذين يُؤتى بهم عن طريق البحر.

توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧هـ وهو يُقاتل الصليبيين، وكتمت زوجته «شجرة الدرّ» نبأ وفاته حتى وصل إلى مصر ابنه «توران شاه» من بلاد الشام حيث قاد بنفسه قتال الصليبيين، على حين كانت هي التي تدير أمور المملكة وشؤون القتال باسم زوجها الذي تُوفي ولا يعلم أحد خبر وفاته.

اختلف توران شاه مع شجرة الدرّ زوجة أبيه، كما اختلف مع المماليك فقتله الأميران فارس الدين أقطاي، وبيبرس البندقداري فعادت السلطة إلى شجرة الدرّ فعيّنت عز الدين أيبك ثم تنازلت له عن السلطة بعد أن تزوجت به.

غضب الأيوبيون من سيطرة عز الدين أيبك، وسار الملك الناصر يوسف[١] صاحب حلب إلى دمشق فدخلها وزحف نحو مصر غير أن عز الدين أيبك قد تمكّن من ردّه وتحالف مع الملك الصليبي لويس التاسع ملك فرنسا خوفاً من مداهمة الأيوبيين لمصر.

استمرّ الخلاف بين الأيوبيين وبين المملوك عز الدين أيبك وعمل كل طرفٍ على التفاهم مع الصليبيين ولكن لم تنجح محاولة، وجعل عز الدين أيبك بجانبه طفلاً صغيراً من أمراء الأيوبيين فلم ينته الخلاف، وزحف الملك الأيوبي الناصر يوسف على مصر، والتقى مع المماليك عند بلدة العباسة[٢]، وأحرز النصر في بداية الأمر غير أنه هُزم في الجولة الثانية إذ انضمّ جزء من مماليكه إلى جيش المماليك المصري، وفرّ الأيوبيون من الميدان، ثم حدث تفاهم بين الفريقين

---

(١) الملك الناصر يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي.

(٢) العباسة: سميت باسم (عباسة بنت أحمد بن طولون). فلما زوّج خمارويه ابنته قطر الندى من الخليفة المعتضد، وخرج بها من مصر إلى العراق عملت عباسة في هذا المكان قصراً وخرجت لوداع ابنة أخيها، فقيل له قصر عباسة ثم اختصر. وتقع شمال شرقي القاهرة وعلى بُعد مائة كيلاً منها.

بجهود الخلافة العباسية وذلك سنة ٦٥١هـ.

أصبح فارس الدين أقطاي أكبر الأمراء وأكثرهم شهرةً، ويُنافس عز الدين أيبك، ويحمل عليه بعض تصرّفاته ومنها اتفاقه مع الملك الصليبي لويس التاسع ملك فرنسا والتعهّد له بتسليمه بيت المقدس. وتزوّج أقطاي إحدى الأميرات الأيوبيات وهي ابنة الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماة، وتلقّب باسم «الملك الجواد».

استدعى عز الدين أيبك الأمير فارس الدين أقطاي لاستشارته في بعض الموضوعات فسار إليه في مجموعةٍ من مماليكه فلما وصل إلى القلعة دخلها غير أن الباب قد أُغلق دون مماليكه، وانهال عليه مماليك عز الدين أيبك بالضرب وعلى رأسهم سيف الدين قطز وقتلوه، وأسرع أعوان أقطاي عندما علموا بالخبر في محاولةٍ لإنقاذه وعلى رأسهم الظاهر بيبرس البندقداري وقلاوون الإلفي ظنّاً منهم أنه لم يقتل بعد، ولكنهم لم يلبثوا أن أُخبروا أن أمره قد انتهى، وهكذا انقسم المماليك إلى مماليك معزّية وهم مماليك الملك المعزّ عز الدين أيبك وعلى رأسهم سيف الدين قطز، ومماليك صالحية أو بحرية وهم مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب،

ومنهم الظاهر بيبرس البندقداري، وقلاوون الإلفي.

أخذ المماليك البحرية يفرّون إلى ملوك بني أيوب في بلاد الشام وخاصةً إلى الملك الناصر يوسف الذي كان الخصم الأول لعز الدين أيبك، ثم جرى الصلح بينهما، وطلب الملك الناصر يوسف من الملك المعز عز الدين أيبك أن يعطي المماليك البحرية جنوبي بلاد الشام فيكون قد أبعدهم خوفاً من شرهم وفي الوقت نفسه يكون قد أرضاهم فلا تتفتت قوة المسلمين تجاه أعدائهم إلا أن هذا الطلب من الملك الناصر يوسف قد أخاف الملك المعز عز الدين أيبك حيث خشي أن يكون هذا دعماً للمماليك البحرية واتفاقه معهم على أمرٍ لذا فقد استعدّ للقتال وأقام بالعباسة استعداداً لأيِّ طارئٍ وبقي بالعباسة ثلاث سنواتٍ، ثم عاد إلى القاهرة بعد أن تمّ الصلح حيث أرسل الخليفة العباسي المستعصم من أصلح بينهما.

بعد أن تمّ الصلح بين الملك الناصر يوسف والملك المعزّ عز الدين أيبك لجأ المماليك البحرية إلى الملك الأيوبي المغيث عمر صاحب الكرك الذي كان يطمع أيضاً بمصر. فأراد الملك المعز عز الدين أيبك أن يُطوّق المغيث عمر فراسل صاحب الموصل بدر الدين

لؤلؤ وخطب ابنته فوقعت الغيرة في نفس شجرة الدرّ زوجة عز الدين أيبك وعملت على التخلّص من زوجها فراسلت الملك الأيوبي الناصر يوسف تُحرّضه على غزو مصر وتتعهّد له بدعمه، ولكن لم تجد عنده تلك الحماسة فعملت مع المماليك واستطاعت قتل زوجها عز الدين أيبك سنة ٦٥٥هـ.

اختلف المماليك بعضهم مع بعض فالصالحية يناصرون شجرة الدرّ، وأصبح الأمير علم الدين سنجر الحلبي مقدّم هذه الجماعة، والمماليك المعزية يُعارضون شجرة الدرّ، وقد استطاعوا إلقاء القبض على علم الدين سنجر الحلبي وألقوه في السجن، وتغلّبوا على الأمر.

بدأت المماليك الصالحية (البحرية) تفرّ من مصر إلى ملوك الأيوبيين في بلاد الشام وخاصةً إلى المغيث عمر صاحب الكرك وتحرّضه على الزحف إلى مصر، وقد حاول مرتين سنة ٦٥٥هـ و٦٥٦هـ غير أنه فشل بجهود سيف الدين قطز.

قدّم المماليك المعزية عليهم نور الدين عليّ بن عز الدين أيبك الذي غدا سلطاناً لمصر، أما الذي يقوم بالنيابة عنه فهو الأمير سيف الدين قطز، ولكن لم يلبث

سيف الدين قطز أن عزل نور الدين عليّ وتسلّم السلطنة بنفسه بحجة أن نور الدين عليّ كان ضعيفاً وأوضاع البلاد تقتضي رجلاً قوياً، فالأيوبيون لا يزالون يطمعون في مصر، والخطر الخارجي على ديار الإسلام يتمثّل في عدوّين خطيرين هما: المغول والصليبيون.

أما المماليك الصالحية (البحرية) الذين فرّوا إلى بلاد الشام خوفاً من المماليك المعزية وأميرهم سيف الدين قطز واتجهوا إلى الملوك الأيوبيين وخاصةً إلى الناصر يوسف والمغيث عمر فقد رجع بعضهم إلى مصر خوفاً من المغول، وترك بعضهم الآخر الملك الناصر يوسف الذي تفاهم مع المغول على كرهٍ منه أو اعتزل بعد فراره من المغول وانضمام جيشه في غزة إلى سيف الدين قطز، هؤلاء قد ساروا إلى المغيث عمر صاحب الكرك ومنهم الظاهر بيبرس البندقداري، وأخذوا يُغيرون على أملاك الناصر يوسف الجديدة، وهذا ما جعل الملك الناصر يوسف يسير بجيشٍ إلى الكرك ويحاصرها، ووجد المماليك أنفسهم في وضعٍ خطيرٍ وخاصةً الذين كانوا بجانب الملك الناصر يوسف ففرّوا من عنده مغاضبين لموقفه حتى ليُقال إن الأمير الظاهر بيبرس كان قد عرض على الناصر يوسف إعطاءه

أربعة آلاف مقاتلٍ للوقوف في وجه المغول عندما أرادوا عبور نهر الفرات لمنعهم من ذلك، لكن الناصر يوسف لم يستجب لهذا الطلب، وفي الوقت نفسه عفا سيف الدين قطز عن المماليك البحرية فبدؤوا يتجهون نحوه من بلاد سلاجقة الأناضول، ومن دمشق، ومن الكرك وغدا المماليك مرةً أخرى مجموعةً واحدةً، واستقبل سيف الدين قطز هؤلاء استقبالاً كريماً لائقاً وخاصةً الظاهر بيبرس إذ أنزله بدار الوزارة وذلك سنة ٦٥٨هـ.

بعد أن سقطت دمشق بيد المغول سنة ٦٥٨هـ أرسل هولاكو وفداً إلى الأمير سيف الدين قطز يحمل رسالةً كلها تهديد ووعيد، فعقد قطز اجتماعاً ضمّ أمراء المماليك فكان الرأي العزم على الحرب، فقبض سيف الدين قطز على رجال وفد هولاكو وأعدمهم، وعرض جثثهم للناس، وأخذ يستعدّ للقتال فيحشر الجموع ويفرض الضرائب فوجد معارضةً من العلماء على هذه الضرائب وعلى رأسهم العزّ بن عبد السلام الذي أعلن أن على الأمير إذا أراد فرض الضرائب أن يأخذ قبل ذلك الحليّ التي في بيته وبيت أمثاله من الأمراء وأن يضربها نقوداً فإن لم تفِ بالحاجة يفرض

بعدها الضرائب فامتثل سيف الدين قطز بذلك وفعل ما وُجّه إليه.

تمّ الاستعداد في مصر فأرسل الأمير سيف الدين قطز حملةً استطلاعيةً بإمرة الظاهر بيبرس البندقداري إلى جهات غزة فانتصر على حملةٍ مغوليةٍ متقدّمةٍ، وبقي يُناور المغول كي لا يعلموا بتحرّك الجيش الرئيسي الذي يقوده سيف الدين قطز. وإن إرسال الحملة بقيادة بيبرس إنما هو تأكيد لوحدة المماليك والتقاء صفهم فسيف الدين قطز هو من المماليك المعزية والظاهر بيبرس من المماليك الصالحية.

سار سيف الدين قطز على رأس الجيش المملوكي مع الساحل الشامي باتجاه مدينة عكا، وهدّد الصليبيين إن بدرت منهم أية بادرة شرٍّ، وطلب منهم أن يكونوا على الحياد إن لم ينصروا المسلمين، ولم يكن وضعهم يومئذٍ بالذي يساعدهم على التحرّك سواء أكان لصالح المسلمين أم لصالح المغول. ووافى سيف الدين قطز قائده الظاهر بيبرس بين نابلس وبيسان عند عين جالوت.

كان هولاكو بعد أن دخل دمشق قد وصل إليه نبأ وفاة أخيه (مانغو) خان المغول الأعظم لذا رجع إلى

مقر الحكم المغولي بعد أن ترك مكانه في قيادة الجيش المغولي القائد (كتبغانوين)، فسار بالجيش نحو مصر واتجه في سيره نحو عين جالوت لملاقاة الجيش المملوكي. والتقى الجيشان وهجمت ميمنة المغول على ميسرة المسلمين. فتقدّم أمير الجيش الإسلامي سيف الدين قطز وألقى بخوذته على الأرض أمام الأمراء وصاح بأعلى صوته (وا إسلاماه) واندفع نحو المغول يُقاتل فدبّت الحماسة في نفوس المسلمين والتفوا حول أميرهم وانقضّوا على المغول حتى كادوا أن يفنوهم، وقد قُتل القائد (كتبغا) في ميدان المعركة وأُسر ابنه.

وصلت أخبار معركة عين جالوت إلى دمشق فابتهج المسلمون وامتلأت نفوسهم فرحاً وهبّوا يهاجمون المغول ويعملون بهم ذبحاً وشملت هذه المذبحة النصارى أيضاً الذين وقفوا بجانب المغول منذ أن أشرفوا على دمشق وأعانوهم على المسلمين واستأسدوا على المسلمين أثناء سيطرة المغول، ولم يستتب الأمن بدمشق إلا بدخول سيف الدين قطز إليها في ٢٧ رمضان سنة ٦٥٨هـ، أي بعد استسلام قلعتها بثلاثة أشهرٍ وستة أيامٍ، وهذه المدة هي التي حكم المغول فيها دمشق.

وصلت أخبار إلى المغول عن الجهاد عند المسلمين وأن رايته قد رُفعت الآن فدبّ الخوف في نفوسهم وأخذوا يفرّون من بلاد الشام خوفاً من انتقام المسلمين منهم، وتمكّن سيف الدين قطز من فتح بلاد الشام خلال عدة أسابيع، وأعاد بعض الملوك الأيوبيين إلى ممالكهم بعد أن أخذ المواثيق والعهود عليهم بالولاء ودفع الأتاوات السنوية للسلطان في مصر. وكذا أقطع أمراء المماليك إقطاعاتٍ واسعةً إذ أعطى علم الدين سنجر الحلبي نيابة دمشق يحكمها باسمه، ومنح حلب إلى الملك السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وكان الظاهر بيبرس يريدها لنفسه، وقد طلبها من سيف الدين قطز لملاحقة المغول فلم يقبل منه، فأصبح بنفسه شيء عليه.

عاد المماليك إلى مصر، وقتل الظاهر بيبرس أميره سيف الدين قطز إذ لم يقبل أن يعطيه إمارة حلب وربما أيضاً للخلاف السابق الذي كان بين المماليك البحرية (الصالحية) الذين منهم الظاهر بيبرس والمماليك المعزية الذين منهم سيف الدين قطز. وقد اضطر المماليك البحرية للعودة إلى مصر بعد أن فرّوا منها عندما لم يجدوا لهم مقاماً في الشام لهجوم المغول

فكان لا بدّ من الاتفاق لحماية ديار الإسلام، فلما أصبحت ديار مصر والشام في أمانٍ من هجوم المغول عاد الخلاف وظهر من جديدٍ، وقَتل قائد جناح المماليك البحرية الظاهر بيبرس أمير المماليك المعزية سيف الدين قطز. واتفق بعد ذلك أمراء المماليك على تعيين الظاهر بيبرس سلطاناً على مصر.

كان الملك المظفر سيف الدين قُطز قد أناب عنه على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي فلما قُتل سيف الدين قطز نادى سنجر بنفسه سلطاناً، وتلقّب بالملك المجاهد، وأخذ شعار السلطنة بعد مقتل سيف الدين قطز بشهرٍ واحدٍ، وطلب من الملك الأيوبي الأشرف موسى، والملك المنصور الأيوبي صاحب حماة، والأمير حسام الدين لاجين صاحب حلب مساعدته فلم يوافقوه وسيّر الظاهر بيبرس حملةً إلى دمشق حملت علم الدين سنجر إلى القاهرة مقيداً بالأغلال ولم يمض على سلطنته المحلية أكثر من شهرٍ.

وقام رجل بالقاهرة يُدعى «الكوراني» يدعو لنفسه ويعمل على إعادة النفوذ العبيدي، فاستطاع السلطان بيبرس القضاء عليه بسرعةٍ.

استقر الوضع للسلطان الظاهر بيبرس البندقداري

فوقفت دولة المماليك على أقدامها، وفي مرحلة قيام دولة المماليك تولّى أمر مصر أربعة من السلاطين هم:

١" ـ شجرة الدرّ	سنة ٦٤٨هـ ٨٠ يوماً.
٢" ـ عز الدين أيبك	٦٤٨ ـ ٦٥٥هـ.
٣" ـ نور الدين عليّ	٦٥٥ ـ ٦٥٧هـ.
٤" ـ سيف الدين قطز	٦٥٧ ـ ٦٥٨هـ.

وبعد أن تولّى الظاهر بيبرس السلطنة بمدةٍ حملت الدولة اسم الخلافة، واتجهت إليها أنظار المسلمين أكثر من السابق، غير أنها كانت خلافةً رمزيةً لـ:

١" ـكان الخليفة صورةً، والحاكم الفعلي هو السلطان المملوكي.

٢" ـكانت خلافةً محليةً أيضاً تشمل مصر وأجزاء من الشام والحجاز وشمالي إفريقية أي لا تشمل ديار الإسلام كاملةً، ولا يرتبط بها المسلمون كافةً.

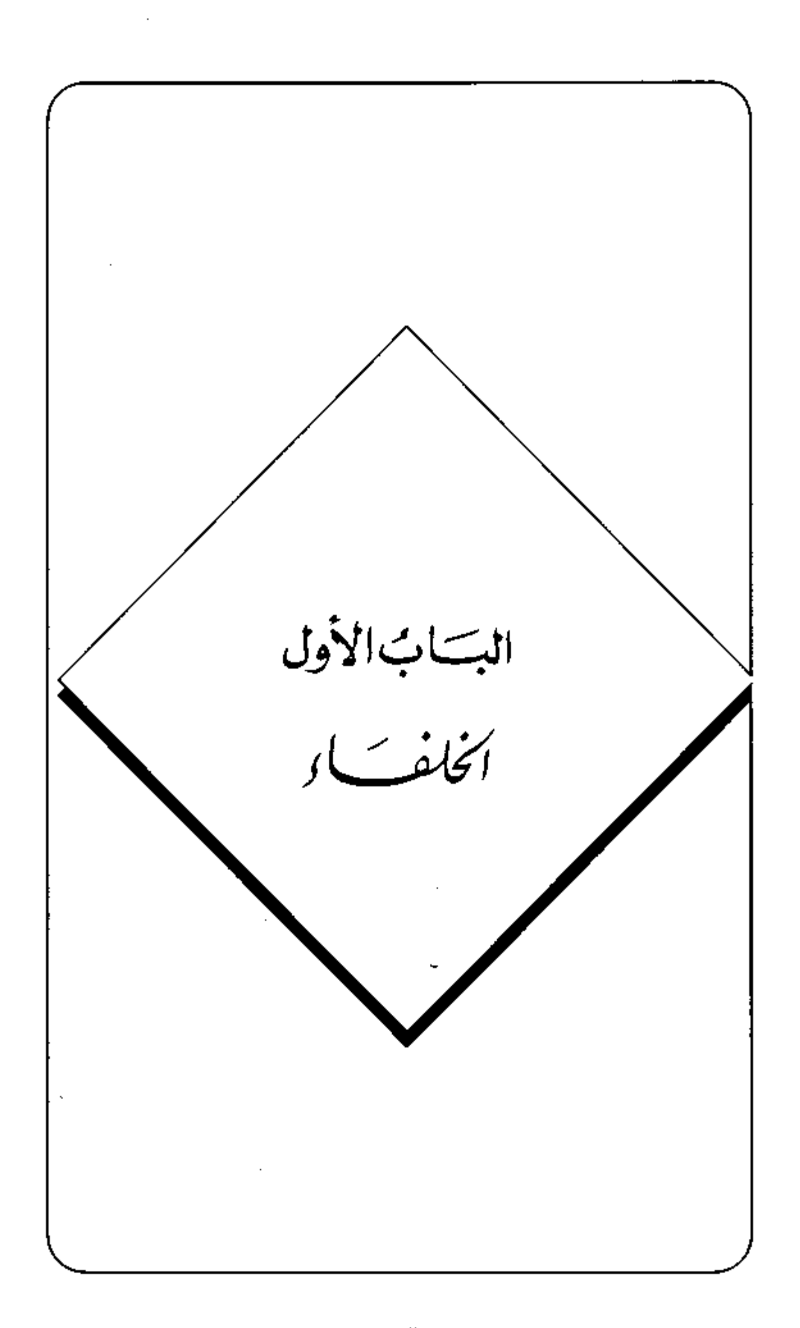
٣" ـتُدعى دار الخلافة دولة المماليك، فالعهد يُنسب لهم وليس للعباسيين، ومعلوم نظرة العامة إلى كلمة مماليك وتعني (العبيد). لذا لم ينظر لها النظرة التي كانت تُعطى للخلافة سابقاً.

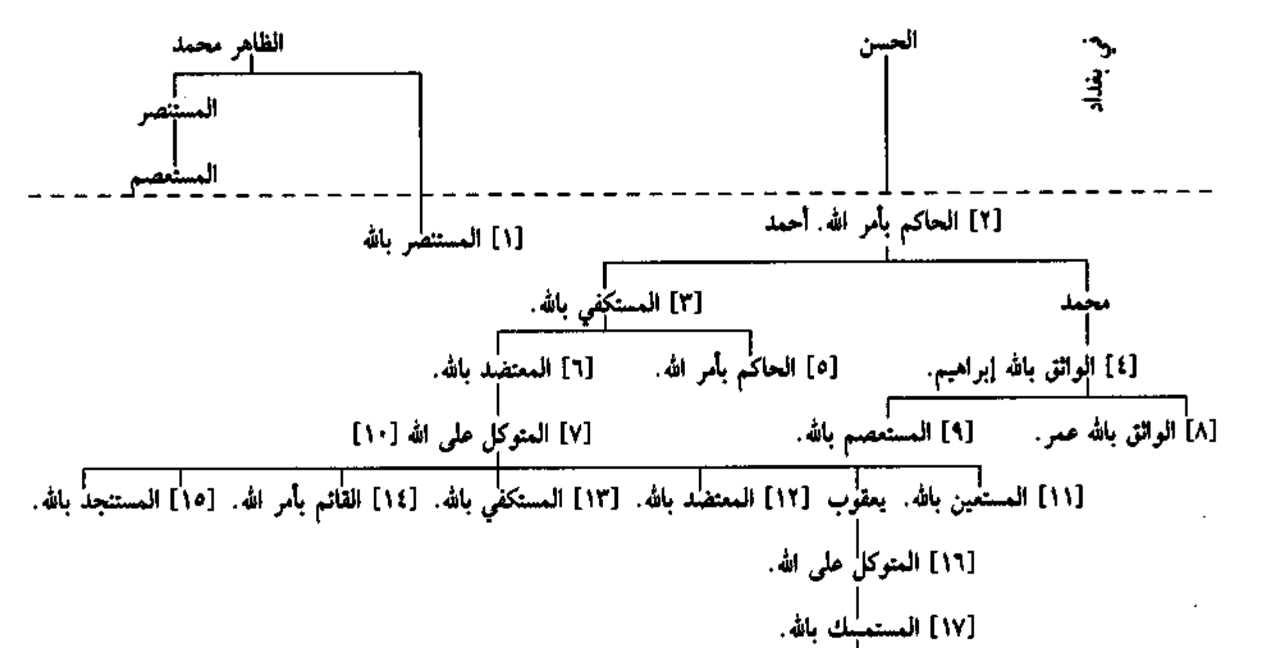
٤" ـلم تُعط مهمة الخلافة في وحدة المسلمين وجمع أمصارهم ونجدة أبنائهم.

الخلافة الرمزية:

لما اقتحم طاغية المغول هولاكو بغداد سنة ٦٥٦هـ، كان أحد الأمراء العباسيين في السجن وهو أحمد بن الخليفة محمد الظاهر جد الخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين، فأحمد هذا هو عمّ الخليفة المستعصم. ولما سقطت بغداد بأيدي المغول فتح السجّانون أبواب السجن وأُطلق أحمد أبو القاسم فهرب وتمكّن من الخروج من بغداد فاتجه إلى جماعةٍ من عرب العراق فبقي مدةً عندهم، فلما انتصر المماليك في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ على المغول، ثم تمكّن سيف الدين قطز من طردهم من الشام. توجّه أحمد أبو القاسم إلى القاهرة، وكان السلطان فيها الظاهر بيبرس فوصل إليها في أوائل شهر رجب سنة ٦٥٩هـ، فأثبت نسبه فبايعه بالخلافة السلطان بيبرس، ثم قاضي القضاة تاج الدين ثم الشيخ عز الدين بن عبد السلام وذلك في شهر رجب نفسه من السنة نفسها ٦٥٩هـ، وخُطب له، ونُقش اسمه على السكة، ولقب بـ(المستنصر) على لقب أخيه، وخطب بالناس يوم الجمعة، ودعا للسلطان بيبرس. وتوالى ثمانية عشر خليفةً في هذا المنصب في دولة المماليك، وهم:

١ ـ المستنصر بالله ٦٥٩ ـ ٦٦٠هـ.
٢ ـ الحاكم بأمر الله ٦٦١ ـ ٧٠١هـ.
٣ ـ المستكفي بالله ٧٠١ ـ ٧٣٦هـ.
٤ ـ الواثق بالله ٧٣٦ ـ ٧٤٢هـ.
٥ ـ الحاكم بأمر الله ٧٤٢ ـ ٧٥٣هـ.
٦ ـ المعتضد بالله ٧٥٣ ـ ٧٦٣هـ.
٧ ـ المتوكل على الله ٧٦٣ ـ ٧٨٥هـ.
٨ ـ الواثق بالله ٧٨٥ ـ ٧٨٨هـ.
٩ ـ المستعصم بالله ٧٨٨ ـ ٧٩١هـ.
١٠ ـ المتوكل على الله ٧٩١ ـ ٨٠٨هـ.
١١ ـ المستعين بالله ٨٠٨ ـ ٨١٥هـ.
١٢ ـ المعتضد بالله ٨١٥ ـ ٨٤٥هـ.
١٣ ـ المستكفي بالله ٨٤٥ ـ ٨٥٤هـ.
١٤ ـ القائم بأمر الله ٨٥٤ ـ ٨٥٩هـ.
١٥ ـ المستنجد بالله ٨٥٩ ـ ٨٨٤هـ.
١٦ ـ المتوكل على الله ٨٨٤ ـ ٨٩٣هـ.
١٧ ـ المستمسك بالله ٨٩٣ ـ ٩١٤هـ.
١٨ ـ المتوكل على الله ٩١٤ ـ ٩٢٣هـ.


الباب الأول
الخلفاء



في بغداد
الحسن
الظاهر محمد
المستنصر
المستعصم
[١] المستنصر بالله
[٢] الحاكم بأمر الله. أحمد
محمد
[٣] المستكفي بالله.
[٤] الواثق بالله إبراهيم.
[٥] الحاكم بأمر الله.
[٦] المعتضد بالله.
[٨] الواثق بالله عمر.
[٩] المستعصم بالله.
[٧] المتوكل على الله [١٠]
[١١] المستعين بالله. يعقوب [١٢] المعتضد بالله. [١٣] المستكفي بالله. [١٤] القائم بأمر الله. [١٥] المستنجد بالله.
[١٦] المتوكل على الله.
[١٧] المستمسك بالله.
[١٨] المتوكل على الله.

هؤلاء الخلفاء العباسيين في دولة المماليك كان دورهم ضعيفاً في تسيير شؤون الدولة سواء أكان ذلك في الداخل أم في الخارج. أما الدور الأساسي فقد كان للمماليك وهم السلاطين، وهؤلاء السلاطين هم الذين نُسب إليهم العهد فيقال العهد المملوكي، ولم ينسب إلى العباسيين رغم أن الخلفاء منهم.

أما المماليك فقد تولى أمرهم سلاطين يعودون في أصولهم إلى جهتين:

١ ـ المماليك البحرية: ٦٥٨ ـ ٧٩٢هـ. وهم من أسرتي الظاهر بيبرس البندقداري، والمنصور قلاوون.

٢ ـ المماليك الجراكسة: ٧٩٢ ـ ٩٢٣هـ.

ولنبدأ بأخذ فكرةٍ عامةٍ عن هؤلاء الخلفاء، ثم نتحدّث بعدئذٍ ـ إن شاء الله ـ عن سلاطين المماليك، والدور الذي قاموا به.

- ١ -
المستنصر بالله
(٦٥٩ ـ ٦٦٠هـ)

هو أحمد أبو القاسم ابن الخليفة العباسي الظاهر الذي تولّى الخلافة (٦٢٢ ـ ٦٢٣هـ) في بغداد، وقد تلقّب بلقب أخيه الخليفة العباسي السادس والثلاثين المستنصر بالله (٦٢٣ ـ ٦٤٠هـ) والد آخر خلفاء بني العباس المستعصم (٦٤٠ ـ ٦٥٦هـ).

كان أحمد أبو القاسم داخل السجن عندما دخل المغول بغداد، فلما فتح السجّانون أبواب السجون أُطلق من السجن فهرب وتمكّن من الخروج من بغداد فاتجه إلى عرب العراق فأقام عندهم مدةً، وهو يكتم نفسه فلا يُعرف أنه عمّ الخليفة المستعصم.

وصلت الأخبار إلى كل مكانٍ أن المماليك قد انتصروا على المغول في عين جالوت، ثم تبعوهم حتى أخرجوهم من الشام، وعمّ الفرح المسلمين، فقرر أحمد أبو القاسم الانتقال إلى مصر فسار نحوها فوصل إليها في أوائل شهر رجب سنة ٦٥٩هـ، وكان الأمر فيها للسلطان المملوكي الظاهر بيبرس، فعرّف بنفسه وأثبت نسبه، فرأى الظاهر بيبرس فرصةً لرفع مكانة دولة

المماليك، فاستشار ضيفه العباسي بالخلافة وسأله عن رأيه في تولّي الخلافة وإعلان القاهرة داراً للخلافة فلم يمانع فبايعه مباشرةً الظاهر بيبرس، وبايعه كذلك قاضي القضاة تاج الدين ثم الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام، فغدت دولة المماليك خلافةً.

قرر الخليفة المستنصر بالله التوجّه إلى العراق لقتال المغول، وخرج معه السلطان الظاهر بيبرس يُشيّعه حتى وصل معه إلى دمشق فجهّزه بجيشٍ، وانضمّ إليه الملوك في بلاد الشام، وصاحب سنجار، والخليفة الحاكم بأمر الله العباسي الذي بويع في حلب خليفةً، وقد تنازل للخليفة المستنصر بالله بسبب أنه أكبر منه سناً، ولصلته بأواخر خلفاء بني العباس في بغداد، وسار معه تحت لوائه.

وصل الخليفة المستنصر بالله إلى العراق ودخل مدينة الحديثة على نهر الفرات، وسار منها إلى مدينة هيت فدخلها أيضاً، فالتقى بعدها بجيشٍ من المغول، ودارت معركة بين الطرفين قُتل فيها الخليفة المستنصر بالله، ونجا الخليفة في حلب الحاكم بأمر الله مع عددٍ قليلٍ من أعوانه، وذلك في الثالث من شهر المحرم سنة ٦٦٠هـ، وبذا كانت خلافته خمسة أشهرٍ وعشرين يوماً.

- ٢ -

الحاكم بأمر الله

(٦٦١ ـ ٧٠١هـ)

هو أحمد أبو العباس بن أبي علي الحسن بن أبي بكر بن الحسن بن علي الضبيّ بن الخليفة المسترشد بالله الفضل (٥١٢ ـ ٥٢٩هـ).

كان أحمد أبو العباس قد اختفى في بغداد عندما دخلها المغول فلما خفّ الطلب وقلّت موجة التدمير والقتل المغولي هرب مع جماعةٍ من أعوانه وسار إلى عرب بني خفاجة فأقام عندهم مدةً، ثم سار إلى دمشق وأقام عند عيسى بن مهنا زمناً فطلبه الملك الناصر يوسف صاحب دمشق غير أن هجوم المغول قد كفّ عنه الطلب، فلما جاء الملك المظفّر محمود تقي الدين إلى دمشق أرسل الأمير قلج البغدادي يطلبه فجاءه والتقى به فبايعه بالخلافة.

ودعاه السلطان الظاهر بيبرس للسير إلى القاهرة فهمّ بذلك غير أن أحمد أبا القاسم قد سبقه مما اضطره أن يعدل عن الرأي في السير إلى القاهرة وأن يتوجّه إلى حلب حيث بويع هناك بالخلافة، وتلقّب بـ(الحاكم بأمر الله)، وقد جهّزه صاحب حلب وأرسل معه فرقةً

لقتال المغول وإنقاذ بغداد منهم، فسار إلى مدينة (عانة) ومنها إلى مدينة (الحديثة) فالتقى هناك بأحمد أبي القاسم الخليفة المستنصر بالله الذي بويع بالقاهرة فأصبح خليفتان فتنازل الحاكم بأمر الله أحمد أبو العباس بصفته الأصغر سناً إلى المستنصر بالله أحمد أبي القاسم، وقاتل تحت رايته، والتقيا مع المغول في معركةٍ قُتل فيها الخليفة المستنصر بالله أحمد أبو القاسم، ونجا أحمد أبو العباس مع عددٍ قليلٍ من أعوانه فاتجه إلى الرحبة، ومنها إلى عيسى بن مهنا بدمشق فراسل السلطان الظاهر بيبرس بأحمد أبي القاسم فطلبه، فسار إلى القاهرة، ومعه ولده، ومجموعة من أتباعه فأكرمه السلطان بيبرس، وأنزله بالبرج الكبير بالقلعة، وخطب بمسجدها عدة مراتٍ.

أثبت أحمد أبو العباس نسبه فبايعه السلطان الظاهر بيبرس وقاضي القضاة والعلماء ثم بقية الناس في الثامن من شهر المحرم سنة ٦٦١هـ، وبذا بقيت دولة المماليك سنة دون خلافة (٦٦٠ ـ ٦٦١هـ)، وقد بقي المسلمون قبل ذلك مدة ثلاث سنواتٍ دون خلافة (٦٥٦ ـ ٦٥٩هـ).

لم يعد السلطان الظاهر بيبرس يُفكّر بإرسال

الخليفة على رأس جيش إلى بغداد لإنقاذها من المغول واسترجاعها كحاضرة للخلافة العباسية، وإنما أراد إبقاءه في القاهرة لتقوية مركز الخلافة فيها بوجود الخليفة، وهذا رمز أيضاً تتقوّى به السلطة، ويدعمه السلطان. وتعود للمسلمين خلافتهم ويقوى سلطانهم بالتفافهم حول الخليفة الذي هو رمز السلطة الإسلامية، وتكتسب بذلك الدولة المملوكية الصفة الشرعية، ويقوى نفوذها، وتزداد أهميتها لدى الدول الإسلامية الأخرى، وبالفعل فقد أصبح المماليك محطّ أنظار المسلمين وأقوى دولةٍ لهم في تلك الحقبة من التاريخ.

وأعلنت الدولة الحفصية[1] في تونس الخلافة وذلك عندما سقطت الخلافة العباسية في بغداد سنة

---

(١) الدولة الحفصية: تنسب إلى أبي حفص يحيى بن عمر الهنتاني شيخ قبيلة هنتانة إحدى بطون قبيلة مصمودة التي قامت دولة الموحدين على جهودها، وكان أبو حفص أحد دعاة محمد بن تومرت، وقد عُيّن والياً على تونس، وخلفه في الولاية ابنه عبد الواحد سنة ٦٠٢هـ، وقام بعده ابنه يحيى أبو زكريا الذي أعلن الاستقلال بتونس عندما هُزم الموحدون في معركة العقاب سنة ٦٠٩هـ فضعف أمر الموحدين فأعلن استقلاله سنة ٦٢٦هـ، وتوفي سنة ٦٤٧هـ، وخلفه ابنه محمد أبو عبد الله فأعلن نفسه خليفة بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ.

٦٥٦هـ على يد المغول، والذي أُعلن خليفةً في تونس هو أبو عبد الله محمد وبايعه على ذلك شريف مكة إدريس بن حسن بن راجح بن قتادة أبي عزيز، وتلقّب هذا الخليفة الحفصي باللقب نفسه الذي تلقّب به الخليفة العباسي بالقاهرة المستنصر بالله.

حجّ السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٧هـ وأزال أنصار الحفصيين في مكة، وبسط نفوذه في الحجاز، وتقرّب من العلماء.

توفي الخليفة الحاكم بأمر الله في مطلع شهر جمادى الآخرة سنة ٧٠١هـ وبويع بعده ابنه سليمان أبو الربيع، فكانت مدة خلافة الحاكم بأمر الله أربعين سنةً.

- ٣ -

المستكفي بالله

(٧٠١ ـ ٧٣٦هـ)

هو أبو الربيع سليمان بن أحمد الحاكم بأمر الله، ولد في الخامس عشر من شهر المحرم سنة ٦٤٨هـ، وبويع بالخلافة بعهدٍ من أبيه في الثامن عشر من شهر جمادى الآخرة سنة ٧٠١هـ، في اليوم الثاني من وفاة أبيه.

وصلت الأخبار إلى مصر في شهر رجب سنة ٧٠٢هـ بعزم المغول على غزو بلاد الشام فاستعدّ السلطان الناصر محمد بن قلاوون للخروج من مصر والتوجّه إلى الشام.

بدأت أفواج المغول تتدفق نحو بلاد الشام وفرّ الجيش المملوكي من حلب وحماة نحو دمشق، ووصل الجيش المغولي إلى حمص وبعلبك. والتقى شيخ الإسلام ابن تيمية مع جند حماة الفارين في بلدة القطيفة شمال دمشق بخمسةٍ وثلاثين كيلاً.

خرجت العساكر الشامية من دمشق يوم ٢٤ شعبان سنة ٧٠٢هـ وعسكرت بناحية الكسوة جنوب دمشق بخمسة وعشرين كيلاً وذلك ليجنّبوا دمشق مخاطر

الحروب المغولية. وجاءت الجيوش المصرية والتقت مع الجيوش الشامية بناحية الكسوة، وعلى رأس هذه الجيوش الخليفة المستكفي بالله والسلطان الناصر محمد بن قلاوون. وفي يوم السبت الثاني من شهر رمضان التقت هذه الجيوش.

وسار المغول من حمص إلى قارة ومنها إلى القطيفة وعندما اقتربوا من دمشق تركوها على يمينهم وساروا نحو الكسوة وذلك كي لا يُشغلوا جندهم بالمدينة يمرحون ويفقدون عزيمة القتال. وبعد ظهر يوم السبت احتدمت المعركة وثبت الخليفة كما ثبت السلطان وانتهت بهزيمة المغول الذين فروا إلى أعالي التلال، وعُرفت هذه المعركة باسم معركة «شقحب» نسبة إلى الموقع الذي جرت فيه.

وقبض السلطان الناصر محمد بن قلاوون على الخليفة المستكفي بالله سنة ٧٣٦هـ، ومنعه من الاجتماع بالناس، ثم نفاه في آخر العام (شهر ذي الحجة ٧٣٦هـ) إلى بلدة قوص في جنوبي مصر، كما نفى معه أهله، وبقي الخليفة في منفاه حتى توفي سنة ٧٤٠هـ.

قال ابن حجر العسقلاني عن الخليفة المستكفي بالله: كان فاضلاً، جواداً، حسن الخط جداً، شجاعاً.

وتولّى بعده ابن أخيه وهو: إبراهيم بن محمد بن أحمد الحاكم بأمر الله، ولُقّب بـ الواثق بالله.

ـ ٤ ـ
الواثق بالله إبراهيم
(٧٣٦ ـ ٧٤٢هـ)

هو إبراهيم بن محمد (المستمسك بأمر الله) بن أحمد الحاكم بأمر الله.

كان الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد قد عهد بالخلافة من بعده لولده محمد ولقّبه المستمسك بأمر الله غير أنه قد مات في حياة أبيه، وعطفاً من الجد على ولد ولده فقد عهد إليه بالخلافة ظناً منه أنه يصلح لها، ولكنه لم يلبث أن وجده منهمكاً باللعب منصرفاً إلى صداقة الأشرار لذا فقد عدل عنه، وعهد إلى ولده أبي الربيع سليمان (المستكفي بالله) فتولى الأمر بعد وفاة والده سنة ٧٠١هـ، غير أن إبراهيم هذا الذي عزله جده لسوء طباعه كان يمشي بالنميمة بين عمه الخليفة المستكفي بالله وبين السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وهذا ما أدّى إلى الوقيعة بين الاثنين بعد أن كانا كالأخوين، وقبض السلطان على الخليفة المستكفي بالله ونفاه وأهله إلى قوص، وقد بقي فيها إلى أن توفي سنة ٧٤٠هـ، وقد عهد قبل وفاته إلى ابنه أحمد.

أما السلطان الناصر محمد بن قلاوون فبعد أن

نفى المستكفي بالله بايع إبراهيم هذا باسم الواثق بالله، ولم ينظر إلى عهد المستكفي بالله. ولما حضرت الوفاة السلطان ندم على ما فعل لأن إبراهيم الواثق بالله لم يكن أهلاً للخلافة فأوصى بعزله ومبايعة أحمد بن سليمان المستكفي بالله وتمّ ذلك في غرة شهر المحرم سنة ٧٤٢هـ. ولقّب أحمد بن سليمان بلقب جده الحاكم بأمر الله، كما كني بكنيته أبي العباس.

ـ ٥ ـ
الحاكم بأمر الله
(٧٤٢ ـ ٧٥٣هـ)

هو أحمد أبو العباس ابن الخليفة سليمان المستكفي بالله، ويكنى بكنية جده، وكذا يُلقّب بلقبه وقد تولّى الخلافة في غرّة شهر المحرم سنة ٧٤٢هـ، إذ أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد أوصى بذلك، وكان الخليفة المستكفي بالله قد عهد بالخلافة لابنه أحمد هذا إذ لم يعترف بخلعه وبيعة ابن أخيه إبراهيم.

لما تولّى السلطنة المنصور سيف الدين أبو بكر بعد وفاة أبيه السلطان الناصر في شهر ذي الحجة سنة ٧٤١هـ، وطلب الخليفة إبراهيم الواثق بالله، وولي عهد الخليفة المستكفي بالله ابنه أحمد، والقضاة، وقال: من يستحق الخلافة شرعاً؟ فقال ابن جماعة: إن الخليفة المستكفي بالله المتوفى بمدينة قوص أوصى من بعده بالخلافة لولده أحمد، وأشهد عليه أربعين عدلاً بمدينة قوص، وثبت ذلك عندي بعد ثبوته عند نائبي بمدينة قوص، فخلع السلطان المنصور حينئذٍ إبراهيم، وبايع أحمد ابن عمّ إبراهيم، وبايعه القضاة، وكان لقبه المستنصر ثم لُقّب الحاكم بأمر الله بلقب جده.

وحدث في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله أن توالى على أمر السلطنة ثمانية من أبناء السلطان الناصر محمد بن قلاوون بعضهم إثر بعضٍ في مدة لا تزيد على عشر سنواتٍ.

ومات الخليفة الحاكم بأمر الله في منتصف سنة ٧٥٣هـ بمرض الطاعون، ولم تحدث في أيامه أحداث خارجية ذات أهميةٍ وإنما كانت الأحداث الداخلية هي شاغل الناس، فكان الأمراء يُشغل بعضهم ببعضٍ ولهذا كثر عزل السلاطين وقتلهم والانتقام من بعض الأمراء.

- ٦ -

المعتضد بالله
(٧٥٣ - ٧٦٣هـ)

هو أبو بكر ابن الخليفة سليمان المستكفي بالله، ويكنّى بأبي الفتح، ويُلقّب بـ(المعتضد بالله)، بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه أحمد الحاكم بأمر الله سنة ٧٥٣هـ، وبقي بالخلافة مدة عشر سنوات إذ توفي سنة ٧٦٣هـ في شهر جمادى الأولى.

كان خيّراً، متواضعاً، محباً لأهل العلم.

ولم تقع أحداث خارجية في هذه المرحلة؛ بل بقيت الأحداث الداخلية موضع الاهتمام وشغل المجتمع الشاغل.

وتولّى الخلافة بعده ولده محمد المتوكل على الله.

- ٧ -

المتوكل على الله

(٧٦٣ - ٧٨٥هـ)

هو محمد بن أبي بكر المعتضد بالله، ويكنى بأبي عبد الله، ولي الخلافة بعد موت أبيه في شهر جمادى الأولى سنة ٧٦٣هـ وبعهدٍ منه، واستمرّت أيامه اثنتين وعشرين سنةً خُلع بعدها، وتولّى الخلافة بعده اثنان من أبناء عمومته، وهما: الواثق بالله محمد بن الواثق بالله إبراهيم، وأخوه المستعصم بالله بن الواثق بالله إبراهيم ثم أعيد إلى الخلافة المتوكل على الله سنة ٧٩١هـ أي بعد ستة سنواتٍ من خلعه، وتولّى الخلافة في المرة الثانية مدة سبع عشرة سنةً أي كانت السنوات التي تولّى فيها الخلافة تسعاً وثلاثين سنةً.

أمر أمير العساكر أيبك البدري الخليفة المتوكل على الله بالخروج إلى مدينة قوص في جنوبي مصر، وأتى بزكريا ابن الخليفة الواثق بالله وسلّمه الخلافة دون بيعةٍ ولا إجماع، فسافر الخليفة إلى مدينة قوص ثم رجع إلى بيته بعد خمسة عشر يوماً وعاد إلى الخلافة، وأزيح زكريا ولم يستقر في مركز الخلافة سوى خمسة عشر يوماً وذلك في العشرين من شهر ربيع الأول سنة ٧٧٩هـ.

وفي سنة ٧٨٥هـ قبض السلطان برقوق على الخليفة المتوكل على الله وسجنه في قلعة الجبل، وخلعه من الخلافة، وبايع الخليفة محمد بن الواثق بالله إبراهيم، ولقّبه بلقب أبيه الواثق بالله.

ـ ٨ ـ

الواثق بالله محمد

(٧٨٥ ـ ٧٨٨هـ)

هو محمد ن الخليفة الواثق بالله إبراهيم بايعه السلطان برقوق بالخلافة سنة ٧٨٥هـ بعد أن سجن الخليفة السابق المتوكل على الله. وأعطاه السلطان برقوق لقب أبيه الواثق بالله، وبقي بالخلافة مدة ثلاث سنواتٍ حيث توفي سنة ٧٨٨هـ.

طلب الناس من السلطان برقوق إعادة المتوكل على الله إلى الخلافة فلم يقبل، وإنما طلب زكريا أخا الواثق والذي سبق له أن جلس على كرسي الخلافة مدة خمسة عشر يوماً من غير بيعةٍ وذلك سنة ٧٧٩هـ، وولّاه الخلافة، ولقّبه المستعصم بالله.

ـ ٩ ـ

المستعصم بالله

(٧٨٨ ـ ٧٩١هـ)

هو زكريا بن الخليفة الواثق بالله إبراهيم، كان أمير العساكر أيبك البدري قد سلّمه الخلافة في الخامس من شهر ربيع الأول سنة ٧٧٩هـ بعد أن أخرج الخليفة المتوكل على الله إلى مدينة قوص، ولكن لم يستقر في مركز الخلافة سوى خمسة عشر يوماً حيث عاد المتوكل على الله إلى القاهرة في العشرين من شهر ربيع الأول سنة ٧٧٩هـ وأُعيد المتوكل على الله إلى خلافته السابقة، وبقي في مركزه حتى سنة ٧٨٥هـ حيث قبض عليه السلطان برقوق وأودعه سجن قلعة الجبل وخلعه من الخلافة، وبايع الخليفة محمد بن الواثق بالله إبراهيم، ولقّبه بلقب أبيه الواثق بالله، وبقي حتى توفي سنة ٧٨٨هـ فيكون قد قضى ثلاث سنواتٍ في الخلافة.

طلب الناس من السلطان برقوق إعادة الحاكم بأمر الله إلى الخلافة فلم يقبل، وإنما طلب زكريا أخا الواثق بالله محمد بن الواثق بالله إبراهيم وولّاه الخلافة باسم المستعصم بالله، وبقي بالخلافة حتى سنة ٧٩١هـ أي مدة ثلاث سنواتٍ حيث ندم السلطان برقوق على

ما فعل فأخرج المتوكل على الله من السجن، وأعاد إليه الخلافة، وخلع المستعصم بالله الذي لزم بيته حتى مات. واستمر المتوكل على الله بالخلافة حتى ٨٠٨هـ.

ـ ١٠ ـ

المتوكل على الله
(٧٩١ ـ ٨٠٨هـ)

هو محمد بن أبي بكر المعتضد بالله، وهو الذي تولّى الخلافة (٧٦٣ ـ ٧٨٥هـ)، وقد أُمر بالخروج من القاهرة إلى قوص وعيّن مكانه في الخلافة زكريا بن الواثق بالله إبراهيم مدة خمسة عشر يوماً، وبايع بالخلافة محمد بن الواثق بالله إبراهيم مدة اثنتي عشرة سنة.

وندم السلطان برقوق على ما فعل، فخلع الخليفة المستعصم بالله بن الخليفة الواثق بالله إبراهيم وأجبره لزوم بيته، وأخرج المتوكل على الله من سجنه، وأعاده إلى الخلافة، واستمر فيها حتى توفي في شهر رجب سنة ٨٠٨هـ، وكان قد عهد بالخلافة من بعده لولده العباس (المستعين بالله).

وفي عهد الخليفة المتوكل على الله، قُبض على السلطان برقوق، وسُجن في الكرك في شهر جمادى الآخرة سنة ٧٩١هـ. وأُعيد السلطان الصالح حاجي إلى السلطنة فغيّر لقبه من الصالح إلى المنصور، غير أنه لم يلبث في السلطنة سوى ثمانية أشهرٍ حيث أُخرج

السلطان برقوق من السجن وأُعيد إلى السلطنة، ثم خلع المنصور حاجي في شهر صفر سنة ٧٩٢هـ، وانتهى حكم الأسرة القلاوونية، وانتهى حكم المماليك البحرية، وجاء عهد المماليك الجراكسة.

ـ ١١ ـ
المستعين بالله
(٨٠٨ ـ ٨١٥هـ)

هو أبو الفضل العباس بن المتوكل على الله محمد، وأمه أم ولد تركية اسمها «باي خاتون»، بويع بالخلافة بعهدٍ من أبيه، وتولّى الأمر بعد وفاة أبيه في شهر رجب سنة ٨٠٨هـ.

قُتل السلطان الناصر فرج بن الظاهر برقوق سنة ٨١٥هـ، فأضيفت السلطنة إلى الخليفة بعد إصرار الأمراء على ذلك، وفوّض الخليفة إلى شيخ بن عبد الله تدبير شؤون المملكة ولقّبه «نظام الملك» ثم سأل شيخ بن عبد الله الخليفة المستعين بالله أن يُفوّض إليه السلطنة فلم يقبل لأن شيخ رفض شرط الخليفة وهو عدم السكن بالقلعة، فأخذ شيخ السلطنة بالقوة، وتلقّب باسم «المؤيّد»، وأعلن خلع الخليفة المستعين بالله، وبايع أخاه داود بن المتوكل على الله.

ولما بلغ نائب الشام «نوروز» خلع الخليفة جمع القضاة والعلماء وسألهم عما جرى فأجابوا بأن هذا الخلع لا يصحّ، وهذا ما جعل النائب «نوروز» يخلع الطاعة ويعزم على قتال السلطان المؤيد الذي انتزع

السلطنة بالقوة وخلع الخليفة دون ضرورةٍ شرعيةٍ. فجمع المؤيد جيشاً وسار إلى الشام لقتال نائبها، ونقل الخليفة المستعين بالله إلى الإسكندرية ليكون سجنه هناك. وقد بقي في السجن هناك حتى سنة ٨٢٤هـ حيث أخرجه السلطان الظاهر ططر. لكن الخليفة فضل البقاء على إقامته في الإسكندرية حتى توفي سنة ٨٣٣هـ.

- ١٢ -

المعتضد بالله

(٨١٥ ـ ٨٤٥هـ)

هو أبو الفتح داود بن محمد المتوكل على الله. أمه أم ولد تركية تُدعى «كزل»، أُعطي الخلافة حين خلع السلطان المؤيد أخاه المستعين بالله سنة ٨١٥هـ.

توفي السلطان الظاهر ططر في شهر ذي الحجة سنة ٨٢٤هـ، فقلّد الخليفة المعتضد بالله أمر السلطنة إلى محمد بن الظاهر ططر، وقد اختار لنفسه لقب الصالح، وجعل شؤون المملكة للأمير برسباي.

في شهر ربيع الثاني سنة ٨٢٥هـ خلع الأمير برسباي من السلطنة الصالح ابن ططر، وتسلّم هو شؤونها، وقلّده الخليفة المعتضد بالله أمرها، فاتخذ لقب الأشرف.

توفي الأشرف برسباي في شهر ذي الحجة سنة ٨٤١هـ فقلّد الخليفة المعتضد بالله أمر السلطنة إلى يوسف بن برسباي الذي تلقّب بالعزيز، وجعل شؤون المملكة إلى الأمير جقمق، وبعد ثلاثة أشهرٍ وفي شهر ربيع الأول سنة ٨٤٢هـ خَلع الأمير جقمق من السلطنة العزيز يوسف بن برسباي، وتسلّم هو أمرها، وتلقّب

باسم الظاهر، وقلّده الخليفة المعتضد بالله ذلك.

توفي الخليفة المعتضد بالله سنة ٨٤٥هـ ،وكان من سروات الخلفاء، نبيلاً، ذكياً، فطناً، يجالس العلماء والفضلاء، ويستفيد منهم، ويُشاركهم فيما هم فيه، جواداً، سمحاً للغاية[١].

(١) تاريخ الخلفاء.

ـ ١٣ ـ

المستكفي بالله
(٨٤٥ ـ ٨٥٤هـ)

هو أبو الربيع سليمان بن محمد المتوكل على الله، بويع بالخلافة بعهدٍ من شقيقه المعتضد بالله، وتوفي المستكفي بالله يوم الجمعة الثالث من شهر ذي الحجة سنة ٨٥٤هـ. وتولى بعده أخوه القائم بأمر الله.

- ١٤ -
القائم بأمر الله
(٨٥٤ ـ ٨٥٩هـ)

هو أبو البقاء حمزة بن محمد المتوكل على الله، بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه المستكفي بالله الذي لم يعهد بالخلافة إلى أحدٍ من بعده. والقائم بأمر الله شقيق المستعين بالله.

كان شهماً صارماً، أقام أبهة الخلافة مدة حكمه، وعنده جبروت على خلاف بقية إخوته.

توفي الظاهر جقمق في مطلع سنة ٨٥٧هـ، فقلّد الخليفة أمر السلطنة إلى عثمان بن جقمق، وحمل لقب المنصور وكان مدبّر شؤون الدولة الأمير «أينال». وبعد شهرٍ ونصف الشهر من تسلّم المنصور عثمان السلطنة خلعه الأمير أينال وتسلّم مكانه، فما كان من الخليفة القائم بأمر الله إلا أن قلّد الأمير أينال أمر السلطنة في شهر ربيع الأول سنة ٨٥٧هـ، وأخذ لقب الأشرف.

اختلف السلطان أينال مع الخليفة القائم بأمر الله فقبض السلطان على الخليفة في شهر جمادى الأولى سنة ٨٥٩هـ وسجنه في الإسكندرية، وبايع السلطان أينال بالخلافة أخا الخليفة القائم بأمر الله وهو المستنجد بالله.

بقي الخليفة القائم بأمر الله في سجن الإسكندرية حتى توفي سنة ٨٦٣هـ، ودُفن هناك.

ـ ١٥ ـ
المستنجد بالله
(٨٥٩ ـ ٨٨٤هـ)

هو أبو المحاسن يوسف بن محمد المتوكل على الله. وهو الخليفة الخامس من أبناء الخليفة المتوكل على الله، ولي بالخلافة بعد خلع أخيه القائم بأمر الله.

قامت الاضطرابات على السلطان الأشرف أينال، وتوفي سنة ٨٦٥هـ، فقلّد الخليفة المستنجد بالله ابنه أحمد بن أينال والذي أخذ لقب المؤيّد، ولم تمض مدة حتى وثب على السلطان المؤيد الأمير خشقدم، وخلعه، واستبدّ بالأمر، فقلّده الخليفة اسم السلطنة في شهر رمضان سنة ٨٦٥هـ، وأخذ لقب الظاهر سيف الدين خشقدم.

توفي السلطان الظاهر سيف الدين خشقدم في شهر ربيع الأول سنة ٨٧٢هـ بعد سبع سنواتٍ من استلامه السلطنة. فقلّد الخليفة الأمير «بلباي» سلطاناً فأخذ لقب سلفه الظاهر سيف الدين.

لم يلبث الأمير «بلباي» في السلطنة سوى شهرين حتى وثب عليه الجند وخلعوه.

قلّد الخليفة السلطنة بعد الأمير «بلباي» الأمير «تمربغا» فحمل لقب الظاهر أيضاً، وبعد شهرين من تسلّمه السلطنة وثب الجند عليه أيضاً وخلعوه.

قلّد الخليفة السلطنة بعد «تمربغا» إلى الأمير خير بك مساء أحد أيام شهر شعبان سنة ٨٧٢هـ، وفي صباح اليوم التالي وثب عليه الجند وخلعوه، فلم تنقض عليه في السلطنة سوى ليلةٍ واحدةٍ.

قلّد الخليفة السلطنة بعد ذلك إلى الأمير «قايتباي» فأخذ لقب الأشرف فاستقرّ له الأمر مدة تسعٍ وعشرين سنةً.

توفي الخليفة المستنجد بالله في الرابع عشر من شهر المحرم سنة ٨٨٤هـ، بعد أن أصابه مرض الفالج، فبقي مريضاً مدة شهرين، وخلفه ابن أخيه وهو عبد العزيز بن يعقوب، وحمل لقب «المتوكل على الله»، وهو لقب جده.

ـ ١٦ ـ

المتوكل على الله
(٨٨٤ ـ ٨٩٣هـ)

هو أبو العزّ عبد العزيز بن يعقوب بن محمد المتوكل على الله، أخذ لقب جده المتوكل على الله. ولد عبد العزيز سنة ٨١٩هـ، وأمه ابنة أحد الجنود، وتُدعى «حاج ملك». كان محبوباً بين الخاصة والعامة لما امتاز به من أدبٍ، وأخلاقٍ، وتواضعٍ، وبشاشةٍ لكل واحدٍ.

تولّى خمسة من أبناء محمد المتوكل على الله الخلافة، ولم يليها ابنه السادس يعقوب والد هذا الخليفة. ولما مرض عمه المستنجد بالله بمرض الفالج، وطال مرضه عهد إليه بالخلافة من بعده، فلما توفي عمه المستنجد بالله بويع هو بها في يوم الاثنين السادس عشر من شهر المحرم سنة ٨٨٤هـ. وكان عمره يومذاك خمسةً وستين سنةً.

توفي الخليفة المتوكل على الله سنة ٨٩٣هـ، وكان قد عهد لابنه يعقوب من بعده.

- ١٧ -

المستمسك بالله

(٨٩٣ ـ ٩١٤هـ)

هو يعقوب بن عبد العزيز المتوكل على الله بن يعقوب بن محمد المتوكل على الله، بويع بالخلافة بعهدٍ من أبيه سنة ٨٩٣هـ.

شعر الخليفة المستمسك بالله بالتعب سنة ٩١٤هـ فتنازل لابنه محمد، وبقي حتى دخل العثمانيون مصر سنة ٩٢٣هـ، وقد نُقل ابنه محمد المتوكل على الله إلى حاضرة العثمانيين إستانبول، أما هو فلم يُنقل لكبر سنه، وبقي حتى توفي سنة ٩٢٧هـ.

- ١٨ -

المتوكل على الله

(٩١٤ - ٩٢٣هـ)

هو محمد بن يعقوب المستمسك بالله، تنازل له أبوه عن الخلافة سنة ٩١٤هـ، وبقي أبوه على قيد الحياة حتى اضطر ابنه أن يتنازل عن الخلافة للسلطان العثماني سليم الأول سنة ٩٢٣هـ، وبذا يكون آخر خلفاء بني العباس في مصر. وقد انتقل إلى إستانبول مع الخليفة الجديد سليم الأول العثماني وبناءً على رأيه، وسمح له بعد مدةٍ بالعودة إلى مصر، وبقي فيها حتى توفي سنة ٩٥٠هـ.

وصل السلطان العثماني سليم الأول في تقدّمه نحو مصر إلى قرب القاهرة فوقف في وجهه نائب السلطان قانصوه الغوري الذي كان قد قُتل في معركة مرج دابق شمال غربي حلب، ونائبه في مصر (طومان باي) وهو الذي وقف في وجه العثمانيين فجرت معركة الريدانية بين الطرفين في اليوم الأخير من سنة ٩٢٢هـ، وقُتل بعدها الأشرف طومان باي في ٢١ ربيع الأول سنة ٩٢٣هـ بعد أن وقع أسيراً في جهات الجيزة إذ فرّ بعد المعركة إلى هناك يقاتل العثمانيين. ودخل إثرها

السلطان سليم الأول القاهرة في الثامن من شهر المحرم سنة ٩٢٣هـ.

بقي السلطان سليم الأول العثماني في القاهرة ما يقرب من شهرٍ وزّع خلالها الأعطيات، وحضر الاحتفالات.

تنازل الخليفة المتوكل على الله عن الخلافة للسلطان العثماني فأصبح سليم الأول منذ ذلك اليوم خليفةً للمسلمين، كما جاءه محمد أبو نُميّ بن الشريف بركات شريف مكة، وأعلن له الطاعة، وسلّمه مفاتيح الحرمين الشريفين، فتسمّى السلطان سليم الأول باسم (خليفة المسلمين وخادم الحرمين الشريفين).

وبذا زالت دولة المماليك بعد أن حكمت ٢٦٤ سنة (٦٥٩ ـ ٩٢٣هـ).

عاد الخليفة العثماني الجديد سليم الأول إلى إستانبول بعد أن أخذ معه المتوكل على الله، بينما ترك والد الخليفة العباسي في القاهرة نتيجة كبر سنّه، وفقد بصره.


الباب الثاني
السلاطين



مقدمة

المماليك هم الذين يُؤسرون في الحروب فيُباعون، كما كانت مراكز للبيع في مناطق مختلفةٍ وخاصةً في أوروبا، وكان أكثر تجار العبيد هم من اليهود إذ كانوا يختطفون الأطفال ويبيعونهم في أسواق الرقيق، أو يشترون ممن يُختطف ويبيعون، وقد حصلوا بذلك على أموالٍ وفيرةٍ من وراء هذه التجارة وخاصةً تجارة الفتيات إذ فاقوا بها كل ما سواهم.

كان الترك الذين يُؤسرون في الحروب يُشكّلون نسبةً كبيرةً من هذه التجارة وخاصة من بلاد ما وراء النهر. ثم غدا الصقالبة مصدراً آخر للرقيق، ويُؤتى بهم من شرقي أوروبا، والصقالبة هم شعوب روسيا وشرقي أوروبا، ويُباعون في ألمانيا وفرنسا وإيطالية والأندلس. وغدت بعض الأسواق الأوروبية مصدراً لهذا الرقيق الذاهب إلى ديار الإسلام.

وأصبح الرسم إذ ذاك ألا يجلب التجار إلا الرقيق الصغار، فكان هؤلاء يتعلمون في البلدان الإسلامية

الأمور الأساسية في الإسلام كما يتعلّمون ركوب الخيل، ولعب الرمح، ورمي النشّاب و... لذا كان أصحاب الأطماع ورجال السلطان يكثرون من شراء المماليك ليكونوا قوةً لهم يُحقّقون بها أغراضهم ويحمون سلطانهم ومصالحهم.

نهاية الأيوبيين في مصر:

كان الملك الصالح نجم الدين أيوب الملك الأيوبي السابع قد استكثر من شراء المماليك خوفاً من اجتماع الملوك الأيوبيين عليه وخاصةً عمّه إسماعيل. وقد أعطى الملك الصالح الحرية لمماليكه حتى ضجّ منهم الناس فاضطر أن يُبعدهم عن السكان فبنى لهم قلعةً خاصةً بجزيرة الروضة سنة ٦٣٨هـ، واتخذ من هذه القلعة مقرّاً لحكمه. وقد نُسب هؤلاء المماليك إليه فيقال: المماليك الصالحية، كما يُنسبون إلى الجزيرة فيقال: المماليك البحرية. فالمماليك الصالحية والبحرية اسم واحد.

توفي الملك الصالح سنة ٦٤٧هـ بمدينة المنصورة وهو يقاتل الصليبيين، فكتمت زوجته شجرة الدرّ[١] نبأ

(١) شجرة الدرّ: من جواري الملك الصالح نجم الدين أيوب. =

وفاته، واستدعت ابنه توران شاه من الشام فلما وصل إلى مصر قاد بنفسه قتال الصليبيين على حين كانت هي التي تدير أمور المملكة وشؤون القتال باسم زوجها ولا يعلم أحد خبر وفاته.

اختلف توران شاه[1] مع زوجة أبيه «شجرة الدرّ»،

= اشتراها في أيام أبيه الملك العادل، وحظيت عنده، وولدت له ابنه خليل، لذا تُعرف أيضاً باسم «أم خليل»، كما تُلقّب بـ«عصمة الدين»، وأعتقها الملك الصالح وتزوّجها، فكانت معه في بلاد الشام لما كان أميراً هناك مدةً طويلةً، ثم كانت معه لما انتقل إلى مصر وتولّى السلطنة، وكانت في بعض الأحيان تُدير أمور الدولة عند غيابه في الحرب. وكانت ذات عقلٍ وحزمٍ، قارئةً كاتبةً، وتكتب خطاً يُشبه خط زوجها الملك الصالح. وقُتلت تحت الضرب والتعذيب من قبل جواري زوجة عز الدين أيبك، أم عليّ المطلقة وذلك سنة ٦٥٥هـ.

(١) توران شاه الملك المعظم ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب: ثامن ملوك الدولة الأيوبية بمصر وآخرهم، وثالث من سُمّي «الملك المعظم» منهم. والجد لملوك حصن كيفا بديار بكر. كانت إقامته في حصن كيفا نائباً عن أبيه، فلما توفي أبوه بمصر سنة ٦٤٧هـ وكتمت زوجته شجرة الدرّ خبر موته استدعته، فجاء إلى مصر والحرب مشتعلة بين المصريين والصليبيين على أبواب المنصورة فلبس خلعة السلطان بعد أربعة أشهرٍ من وفاة أبيه وقاتل الصليبيين فهزمهم واستردّ دمياط، وتنكّر لزوجة أبيه شجرة الدرّ، فحرّضت عليه=

واختلف كذلك مع المماليك فقتله الأميران فارس الدين أقطاي والظاهر بيبرس البندقداري سنة ٦٤٨هـ، ولم يدم سلطانه سوى أربعين يوماً.

وبمقتل توران شاه انتهت دولة الأيوبيين في مصر، وقد دامت ما يقرب من إحدى وثمانين سنةً. وبدأ عهد المماليك، ودام مائتين وخمسةً وسبعين سنةً (٦٤٨ - ٩٢٣هـ) إذ انتهى بقدوم العثمانيين إلى مصر واستلام الخلافة وإنهاء السلطنة المملوكية.

وتُعرف هذه المرحلة بالعهد المملوكي رغم وجود خلافةٍ وذلك لأن السلطان الحقيقي كان للمماليك ولم يكن للخليفة سوى الاسم، وأما الفعل والأمر والنهي فهو للسلطان وهو من المماليك، ولذا قلنا عن هذه المرحلة هي مرحلة غياب الخلافة. وربما قائل يقول: كذا كان الخلفاء العباسيون في بغداد في عهد السيطرة البويهية وفي عهد السيطرة السلجوقية، فأقول:

١" - إن الخلافة العباسية قبل مرحلة الضعف وعهد السيطرة البويهية كانت ذات مكانةٍ عالميةٍ، كما أنها

= المماليك البحرية فقتلوه في فارسكور، ومدة سلطنته ٤٠ يوماً، ولم يدخل القاهرة، ولم يجلس على سرير الملك بقلعة الجبل.

كانت موضع تقديرٍ عند المسلمين جميعاً وفي ديارهم كلها وقد بقي لهذا أثره فيما بعد، على حين أن الخلافة العباسية في مصر لم يكن لها سابق مكانةٍ، ولا موضع تقديرٍ إذ لم توجد، لذا لم تُعرف.

"٢" ـإن كلمة مماليك ليست محببةً ولا مرغوبةً لدى الناس لذا لم يكن الاهتمام بموضوع خلافةٍ إسلاميةٍ تحت سلطانهم.

"٣" ـمع كل ما قيل عن الخلفاء العباسيين في بغداد أيام السيطرة البويهية والسلجوقية فقد بقوا أكثر قوةً ومكانةً مما كان عليه الخلفاء العباسيون في مصر.

كان المماليك أصحاب السلطان في مصر (٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ) يرجعون إلى جماعتين من المماليك توالى سلطانهم على مرحلتين متتابعتين:

أ ـ المماليك البحرية: امتدّ سلطانهم من ٦٤٨ ـ ٧٩٢هـ.

ب ـ المماليك الجراكسة: امتدّ سلطانهم من ٧٩٢ ـ ٩٢٣هـ.

الفصل الأول

المماليك البحريّة

(٦٤٨ - ٧٩٢هـ)

تسلّمت هذه الجماعة سلطنة مصر مدة ١٤٤ سنةً وتوالى عليها ٢٩ سلطاناً تعود غالبيتهم إلى ما يُسمّى بالمماليك البحرية، وهؤلاء السلاطين هم:

١ ـ شجرة الدرّ	٨٠ يوماً	٦٤٨ ـ ٦٤٨هـ.	
٢ ـ عز الدين أيبك	٧ سنوات	٦٤٨ ـ ٦٥٥هـ.	قُتل.
٣ ـ نور الدين عليّ	٢ سنة	٦٥٥ ـ ٦٥٧هـ.	خُلع.
٤ ـ سيف الدين قُطُز	١ سنة	٦٥٧ ـ ٦٥٨هـ.	قُتل.
٥ ـ الظاهر بيبرس	١٨ سنة	٦٥٨ ـ ٦٧٦هـ.	توفي.
٦ ـ السعيد بركة	٢ سنة	٦٧٦ ـ ٦٧٨هـ.	خُلع.
٧ ـ العادل بدر الدين	أقل من سنة	٦٧٨ ـ ٦٧٨هـ.	خُلع.
٨ ـ المنصور قلاوون	١١ سنة	٦٧٨ ـ ٦٨٩هـ.	توفي.
٩ ـ الأشرف خليل	٤ سنوات	٦٨٩ ـ ٦٩٣هـ.	قُتل.
١٠ ـ الناصر محمد	١ سنة	٦٩٣ ـ ٦٩٤هـ.	خُلع.
١١ ـ العادل كتبغا	٢ سنة	٦٩٤ ـ ٦٩٦هـ.	خُلع

١٢ ـ المنصور لاجين	٢ سنة	٦٩٦ ـ ٦٩٨هـ.	قُتل.
١٣ ـ الناصر محمد	١٠ سنوات	٦٩٨ ـ ٧٠٨هـ.	اعتزل.
١٤ ـ المظفر بيبرس	١ سنة	٧٠٨ ـ ٧٠٩هـ.	قُتل.
١٥ ـ الناصر محمد	٣٢ سنة	٧٠٩ ـ ٧٤١هـ.	توفي.
١٦ ـ المنصور أبو بكر	أقل من سنة	٧٤١ ـ ٧٤٢هـ.	خُلع.
١٧ ـ الأشرف كجك	أقل من سنة	٧٤٢ ـ ٧٤٢هـ.	خُلع. .
١٨ ـ الناصر أحمد	أقل من سنة	٧٤٢ ـ ٧٤٣هـ.	خُلع.
١٩ ـ الصالح إسماعيل	ثلاث سنوات	٧٤٣ ـ ٧٤٦هـ.	توفي.
٢٠ ـ الكامل شعبان	أقل من سنة	٧٤٦ ـ ٧٤٧هـ.	قُتل.
٢١ ـ المظفر أمير حاج	أقل من سنة	٧٤٧ ـ ٧٤٨هـ.	قُتل.
٢٢ ـ الناصر حسن	٤ سنوات	٧٤٨ ـ ٧٥٢هـ.	خُلع.
٢٣ ـ الصالح صالح	٣ سنوات	٧٥٢ ـ ٧٥٥هـ.	خُلع.
٢٤ ـ الناصر حسن	٧ سنوات	٧٥٥ ـ ٧٦٢هـ.	قُتل.
٢٥ ـ المنصور محمد	٢ سنة	٧٦٢ ـ ٧٦٤هـ.	خُلع.
٢٦ ـ الأشرف شعبان	١٤ سنة	٧٦٤ ـ ٧٧٨هـ.	قُتل.
٢٧ ـ المنصور علي	٥ سنوات	٧٧٨ ـ ٧٨٣هـ.	توفي.
٢٨ ـ الصالح حاجي	١ سنة	٧٨٣ ـ ٧٨٤هـ.	خُلع.
ـ برقوق	٧ سنوات	٧٨٤ ـ ٧٩١هـ.	
٢٩ ـ الصالح حاجي	أقل من سنة	٧٩١ ـ ٧٩٢هـ.	خُلع.

ـ ١ ـ

شجرة الدرّ
(٦٤٨ ـ ٦٤٨هـ)

عادت السلطة إلى شجرة الدرّ بعد أن قُتل توران شاه ابن زوجها سنة ٦٤٨هـ، فخُطب لها على المنابر، وضُربت السكّة باسمها، وأقامت عزّ الدين أيبك الصالحي وزير زوجها وزيراً لها. وكانت علامتها على المراسم «أم خليل»، وعلى السكّة «المستعصمة الصالحية، ملكة المسلمين، أم الملك المنصور خليل أمير المؤمنين»، ولم يستقر أمرها غير ثمانين يوماً.

خرجت بلاد الشام عن طاعتها إذ صعب على أهلها التبعية لامرأةٍ. فتزوجت بوزيرها عزّ الدين أيبك، وتنازلت له عن السلطنة فعُرف باسم «الملك المعزّ»، وطلق زوجته الأولى أم عليّ.

أراد الملك المعزّ عز الدين أيبك أن يتزوّج على زوجته شجرة الدرّ فغضبت وأمرت مماليكها أن يقتلوه، فقتلوه خنقاً بالحمام. وعلم ابنه عليّ بالأمر فقبض عليها وسلّمها لأمه ضرّتها السابقة، فأمرت جواريها أن يقتلنها ففعلن ذلك وقتلنها ضرباً.

- ٢ -

عزّ الدين ايبك

(٦٤٨ ـ ٦٥٥هـ)

كان عزّ الدين أيبك أحد مماليك زوج شجرة الدرّ الملك الصالح نجم الدين أيوب، وتقدّم عنده حتى غدا وزيراً له. وتوفي الملك الصالح نجم الدين أيوب وهو يُقاتل الصليبيين سنة ٦٤٧هـ، وكتمت زوجته شجرة الدرّ خبر وفاته، واستدعت ولده توران شاه من حصن كيفا بديار بكر في شمال الشام فجاء وقاد القتال بنفسه، وتسلّم السلطنة مكان أبيه، غير أنه اختلف مع شجرة الدرّ زوجة أبيه فحرّضت المماليك عليه، واختلف معهم أيضاً فقتله الأميران فارس الدين أقطاي والظاهر بيبرس البندقداري.

بعد أن قُتل توران شاه عادت شجرة الدرّ زوجة أبيه إلى السلطة فعيّنت عزّ الدين أيبك وزيراً لها، ثم تنازلت له عن السلطان بعد أن تزوّجت به، ولُقّب باسم الملك المعزّ.

غضب الأيوبيون من سيطرة عزّ الدين أيبك، وسار الملك الناصر يوسف[1] صاحب حلب إلى دمشق

---

(١) الملك الناصر يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك=

فدخلها، وزحف نحو مصر غير أن عزّ الدين أيبك قد تمكّن من ردّه وتحالف مع الملك لويس التاسع ملك فرنسا أحد قادة الصليبيين وذلك خوفاً من مداهمة الأيوبيين لمصر.

أرسل الطاغية المغولي هولاكو وفداً إلى عزّ الدين أيبك وفي الوقت نفسه أرسل وفداً آخر إلى الناصر يوسف الأيوبي في محاولة للمناورة والعمل على كسب حليفٍ إلى جانبه.

عمل الملك المعزّ عزّ الدين أيبك على إنهاء معارضة الأيوبيين بأن جعل إلى جانبه أميراً أيوبياً، وقد اختار لهذه الإمرة طفلاً صغيراً لا يزيد على السادسة من عمره وهو الأشرف موسى بن يوسف بن المسعود بن الكامل، وكان جده المسعود صاحب اليمن، وهو المعروف بـ(اقسيس)، أما أبوه يوسف فقد عاش في كنف الملك الصالح نجم الدين أيوب، ولكن هذا الطفل لم يلبث أن توفي، غير أن هذه الحيلة لم تنطلِ على الأيوبيين فاستمرّت المعارضة، فأعلن عزّ الدين أيبك ارتباط مصر بالخلافة العباسية، وأنه يحكمها نيابةً

= الظاهر غازي بن الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي.

عن الخليفة العباسي المستعصم بالله الذي بدأ يخطب له.

استمرّ الملك الناصر يوسف الأيوبي في معارضته لعزّ الدين أيبك، وعرض على ملك فرنسا لويس التاسع المقيم في عكا مساعدته مقابل تسليمه بيت المقدس غير أن عزّ الدين أيبك قد هدّد لويس التاسع بقتل الأسرى الصليبيين في مصر جميعهم إن اتفق مع الناصر يوسف، وفي الوقت نفسه عرض عليه التحالف معه مقابل أن يتنازل له عن نصف الفدية المقرّرة عليه عند إطلاقه من أسره، فرأى الملك لويس التاسع بعدئذٍ أن يقف على الحياد بين الطرفين مستفيداً من خصومتهما بعضهما لبعض، أو العمل على التحريض بينهما.

زحف الملك الناصر يوسف الأيوبي على مصر والتقى مع المماليك عند بلدة العباسة في أول أرض مصر للقادم من الشام وأحرز النصر في الجولة الأولى غير أنه هُزم في الجولة الثانية إذ انضمّ جزء من مماليكه إلى الجيش المملوكي المصري، وفرّ الأيوبيون من الميدان، ورأى الملك المعزّ عزّ الدين أيبك ملاحقتهم، وعرض على ملك فرنسا الصليبي لويس التاسع دعمه مقابل تسليمه بيت المقدس إن أخذها، ورأى لويس

التاسع الصليبي رجحان جانب المماليك فانضمّ إليهم حيث لم يرغب أن تفوته هذه الفرصة واحتلّ يافا بينما سار المماليك بإمرة فارس الدين أقطاي إلى غزة وكذا سار الملك الناصر يوسف نحو غزة، ولكن لم يحدث لقاءات لأن الخليفة المستعصم في بغداد قد أصلح بين الطرفين بحيث تكون مصر وجنوبي فلسطين بما فيها غزة وبيت المقدس للمماليك، وتكون بقية بلاد الشام للأيوبيين وذلك سنة ٦٥١هـ. وذلك لأن الخليفة المستعصم ﵀ قد رأى أن هذه النزاعات إنما يستفيد منها أعداء المسلمين فقط من مغولٍ وصليبيين إذ تضعف الأمة وتتجزّأ قوتها وتتفرّق كلمتها. ولم يُسلّم المماليك بيت المقدس إلى الصليبيين ما داموا قد أخذوا بيت المقدس دون قتالٍ. وخاب أمل ملك فرنسا لويس التاسع الصليبي، وقد عاد إلى فرنسا سنة ٦٥٢هـ إذ توفيت والدته التي كانت تحكم فرنسا باسمه.

وفي هذا الوقت قامت حركة في صعيد مصر ضدّ المماليك وقد تزعّمها شريف يُدعى حصن الدين فوجّه لها الملك المعزّ عز الدين أيبك قوةً بإمرة فارس الدين أقطاي فاستطاع أن يقضي عليها.

أصبح الأمير فارس الدين أقطاي أكبر الأمراء

وأكثرهم شهرةً ويُنافس الملك المعزّ عزّ الدين أيبك، ويحمل عليه بعض تصرفاته مثل تعهده للملك الصليبي لويس التاسع بتسليمه بيت المقدس، وتلقّب فارس الدين أقطاي باسم الملك الجواد، وتزوّج إحدى الأميرات الأيوبيات وهي ابنة الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماة، ولكن الملك المعزّ عزّ الدين أيبك عمل على التخلّص منه إذ استدعاه لاستشارته في بعض الموضوعات فسار إليه مع مجموعةٍ من مماليكه فلما وصل إلى القلعة دخلها غير أن الباب قد أُغلق دون مماليكه، وانهال عليه مماليك عزّ الدين أيبك بالضرب وعلى رأسهم سيف الدين قطز وقتلوه، وأسرع أعوان فارس الدين أقطاي لإنقاذه وعلى رأسهم الظاهر بيبرس البندقداري وقلاوون الإلفي ظنّاً منهم أنه لم يُقتل بعد، ولكنهم لم يلبثوا أن أُخبروا أن أمره قد انتهى. وهكذا انقسم المماليك إلى مجموعتين: أولاهما المعزية وهم مماليك معز الدين أيبك، وثانيتهما البحرية أو الصالحية وهم مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب.

أخذ بعض المماليك البحرية يفرّون من مصر إلى ملوك بني أيوب في بلاد الشام وخاصةً إلى الملك الناصر يوسف الذي كان الخصم الأيوبي الأول

لعزّ الدين أيبك والمتصالح معه حالياً لذا فإن الملك الناصر يوسف قد طلب من الملك المعزّ أن يُعطي المماليك البحرية جنوبي بلاد الشام فيكون قد أبعدهم عنه خوفاً من شرّهم وفي الوقت نفسه يكون قد أرضاهم فلا تتفتت قوة المسلمين تجاه أعدائهم، إلا أن هذا الطلب من الملك الناصر يوسف قد أخاف عزّ الدين أيبك واعتقد أنه دعم للمماليك البحرية، وقال: ربما يكون قد اتفق معهم، لذا فقد استعدّ عزّ الدّين أيبك وأقام بالعباسة استعداداً لأيّ طارئٍ، وبقي على استعداده أو استنفاره مدة ثلاث سنواتٍ، وعاد بعدها إلى القاهرة بعد أن تمّ الصلح حيث أرسل الخليفة العباسي المستعصم رسولاً هو نجم الدين البادراني فأصلح بينهما على أن يكون للملك المعزّ عزّ الدين أيبك مصر وساحل الشام. ولجأ المماليك البحرية بعد هذا الصلح ـ الذي دارت بنوده بين الملك المعزّ عزّ الدين أيبك المملوكي وبين الملك الناصر يوسف الأيوبي ـ إلى الملك الأيوبي المغيث عمر[1] صاحب الكرك الذي كان يطمع أيضاً ببلاد مصر.

---

(١) المغيث عمر بن الملك العادل محمد بن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل سيف الدين محمد بن نجم الدين أيوب.

أراد الملك المعزّ عزّ الدين أيبك أن يحصر المغيث عمر فراسل صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ وخطب ابنته فوقعت الغيرة في نفس شجرة الدرّ زوجة عزّ الدين أيبك وعملت على التخلّص من زوجها فراسلت الملك الأيوبي الناصر يوسف تُحرّضه على غزو مصر وتتعهد له بدعمه للتخلّص من زوجها عزّ الدين أيبك، ولكن لم تجد عنده تلك الحماسة، فعملت مع المماليك واستطاعت قتل زوجها عزّ الدين أيبك سنة ٦٥٥هـ.

اختلف المماليك بعضهم مع بعض فالبحرية (الصالحية) تناصر شجرة الدرّ، والمعزّية تعارضها، وأصبح الأمير علم الدين سنجر الحلبي مقدم المماليك الصالحية غير أن المماليك المعزية قد قبضوا عليه وسجنوه وتغلّبوا على الأمر، وبدأت المماليك الصالحية تفرّ إلى ملوك الأيوبيين في بلاد الشام وخاصةً إلى الملك المغيث عمر صاحب الكرك وتُحرّضه على أخذ مصر، وقد حاول مرتين سنة ٦٥٥هـ وسنة ٦٥٦هـ غير أنه فشل في كلتا المحاولتين بجهود سيف الدين قُطُز.

ـ ٢ ـ

نور الدين عليّ
(٦٥٥ ـ ٦٥٧هـ)

بعد مقتل الملك المعزّ عزّ الدين أيبك قدّم المماليك المعزّية عليهم نور الدين عليّ بن عزّ الدين أيبك الذي غدا سلطاناً على مصر، وتلقّب باسم الملك المنصور، وكان الأمير سيف الدين قطز هو الذي يقوم بالنيابة عنه. قبض نور الدين عليّ على شجرة الدرّ زوجة أبيه والتي وراء قتل أبيه عزّ الدين أيبك الذي خطب ابنة صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ لأمورٍ سياسيةٍ فدبّت الغيرة في نفس زوجته شجرة الدرّ فعملت على قتله وقد تمّ ذلك.

بعد أن قبض نور الدين عليّ على شجرة الدرّ سلّمها لأمه (أم عليّ) زوجة الملك المعزّ عزّ الدين أيبك سابقاً وضرّة شجرة الدرّ، وقد طلّقها الملك المعز أيبك بتأثير شجرة الدرّ فأمرت أم عليّ جواريها أن يقتلن شجرة الدرّ بالضرب ففعلن ذلك، وقُتلت شجرة الدرّ سنة ٦٥٥هـ.

عزل الأمير سيف الدين قُطز عن السلطنة السلطان نور الدين عليّ وتسلّم السلطنة بنفسه مكانه بحجة أنه

كان ضعيفاً وظروف البلاد تقتضي رجلاً قوياً فالأيوبيون لا يزالون يطمعون في مصر، والخطر الخارجي على ديار الإسلام يتمثّل في عدوّين شرسين هما: المغول والصليبيون.

- ٤ -

سيف الدين قطز

(٦٥٧ _ ٦٥٨هـ)

هو قُطُز بن عبد الله المعزّيّ كان مملوكاً لعزّ الدين أيبك التركماني، فلما قُتل عزّ الدين أيبك وقام بأمر السلطنة مكانه ابنه نور الدين عليّ وتلقّب بالملك المنصور، وترقّى سيف الدين قُطُز وأصبح الأب الأمير (أتابك) للعسكر، ويقوم مقام الملك المنصور بأمور الدولة جميعها.

خلع سيف الدين قطز عن السلطنة الملك المنصور نور الدين عليّ، وتسلّم مكانه مركز السلطان سنة ٦٥٧هـ، وخلع على الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، وجعله الأب الأمير للعسكر وفوّض إليه أمور المملكة جميعها.

كانت بغداد قد سقطت بيد المغول سنة ٦٥٦هـ، وقُتل الخليفة، وأُزيلت الخلافة، ودُمّرت بغداد، وأصاب أهلها البلاء، وحلّت بهم نكبة وكارثة، وخاف الملك الناصر يوسف وهو في الشام فراسل هولاكو يُجامله، ويطلب منه الدعم لأخذ مصر غير أنه لم يحدث بين الطرفين ما يدعو إلى التفاهم. ومع هذا كله لم ينتبه المسلمون إلى واقعهم فيرجعوا إلى إخوتهم،

وينظروا في مصلحة أمتهم بل بقوا على خلافهم ووراء مصالحهم فالأيوبيون في صراعٍ مع المماليك بل وبعضهم مع بعضٍ، والمماليك في خلافٍ فيما بينهم فالبحرية منهم طرف والمعزّية طرف ثانٍ، وهذا يعمل على خلع سلطان ذاك، وبقية المسلمين يعيشون الحال نفسها ـ مع الأسف ـ.

تابع المغول زحفهم نحو الشام وقد عرفوا وضع المسلمين، ووجد الملك الناصر يوسف نفسه ضعيفاً أمام جحافل المغول فاتصل بالمماليك وطلب منهم المساعدة رغم معارضته لهم.

استولى المغول على حلب في شهر صفر سنة ٦٥٨هـ، ثم استولوا على ميافارقين بعد أن دافع أهلها عنها دفاعاً مستميتاً لم يعرفه المغول من قبل، واستشهد صاحبها الملك الأيوبي الكامل محمد[1]، وخضع الملك الأشرف موسى[2] صاحب «تل باشر» قرب مدينة

---

(١) الكامل محمد: ابن الملك المظفر غازي بن الملك العادل سيف الدين محمد بن نجم الدين أيوب.

(٢) الأشرف موسى: ابن المنصور إبراهيم بن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادي.

الرها، ولم يكن يحكم سواها، فأعطاه هولاكو إمارة حمص مكافأةً له، وكان الملك الناصر يوسف قد انتزعها منه منذ سنة ٦٤٦هـ.

وزحف هولاكو نحو دمشق ففرّ منها الناصر يوسف واتجه إلى غزة فاستقبله الأمير سيف الدين قُطُز ومن معه، وبدأ سيف الدين قطز يتقرّب من جيش الناصر يوسف ويحاول ضمّ أمرائه إليه حتى لم يبق مع الملك الناصر إلا قليل فذهب بهم إلى جنوبي الأردن حيث استقرّ قرب الجفر ليعيش منزوياً بمن معه منعزلاً عن الأحداث التي تدور في بلاده، وعلم الطاغية هولاكو بهذا فأرسل مجموعةً من الجند إلى الجفر وأحضرت الملك الناصر يوسف فاستقبله هولاكو استقبالاً كريماً ورأى فيه ضالته، ومنّاه بحكم دولةٍ أيوبيةٍ تشمل مصر والشام تحت حمى المغول، وقدّمه على الأشرف موسى.

حاصر هولاكو دمشق في شهر ربيع الأول سنة ٦٥٨هـ وشدّد الحصار حتى اضطرت المدينة إلى الاستسلام في شهر ربيع الثاني أما القلعة فقد قاومت وصمدت حتى ٢١ من شهر جمادى الآخرة من السنة نفسها، واتجه هولاكو بعدها نحو أنطاكية، ثم رجع إلى

قره قورم حاضرة المغول لحضور اجتماع رؤساء المغول لانتخاب الخان الأعظم لهم بعد وفاة أخيه مانغو الخان الأعظم السابق للمغول، ولكن لما وصل هولاكو إلى مدينة تبريز بلغه خبر انتهاء الاجتماع واختيار أخيه قوبلاي خاناً أعظم للمغول. وكان هولاكو قبل أن يغادر بلاد الشام قد ولّى عليها مكانه القائد كتبغانوين.

أما المماليك البحرية (الصالحية) الذين فرّوا إلى بلاد الشام خوفاً من المماليك المعزّية وأميرهم سيف الدين قطز، واتجهوا إلى الملوك الأيوبيين وخاصةً إلى الملك الناصر يوسف وإلى الملك المغيث عمر فقد رجع بعضهم إلى مصر خوفاً من المغول، وترك بعضهم الآخر الناصر يوسف الذي تفاهم مع المغول على كرهٍ منه، أو اعتزل بعد فراره من المغول وانضمام جيشه في غزة إلى سيف الدين قُطز، هؤلاء قد ساروا إلى الملك المغيث عمر صاحب الكرك ومنهم الظاهر بيبرس البندقداري وبدؤوا يغيرون على أملاك الملك الناصر يوسف الجديدة، وهذا ما جعل الملك الناصر يوسف يسير بجيشٍ إلى الكرك ويحاصرها. ووجد المماليك أنفسهم في وضعٍ خطيرٍ وخاصةً الذين كانوا بجانب الملك الناصر يوسف وفرّوا من عنده مغاضبين لموقفه

حتى قيل: إن الظاهر بيبرس قد عرض على الملك الناصر يوسف إعطاءه أربعة آلاف مقاتلٍ للوقوف في وجه المغول عندما أرادوا عبور نهر الفرات لمنعهم من ذلك لكن الناصر يوسف لم يستجب لهذا الطلب، في هذا الوقت عفا سيف الدين قُطُز عن المماليك البحرية فبدؤوا يتجهون نحوه في مصر من شمالي بلاد الشام ومن دمشق ومن الكرك وغدا المماليك مرةً أخرى مجموعةً واحدةً، واستقبل سيف الدين قُطز هؤلاء استقبالاً لائقاً وخاصةً الظاهر بيبرس إذ أنزله بدار الوزارة وذلك سنة ٦٥٨هـ.

بعد أن سقطت دمشق بيد المغول أرسل هولاكو وفداً إلى السلطان سيف الدين قُطُز يحمل رسالةً كلها تهديد ووعيد، فعقد سيف الدين قطز اجتماعاً ضمّ أمراء المماليك فكان الرأي العزم على الحرب، فقبض السلطان قُطُز على رجال وفد هولاكو وقتلهم وعرض أجسادهم للناس، وأخذ يحشد الحشود ويفرض الضرائب فوجد معارضةً من العلماء على هذه الضرائب وعلى رأسهم العزّ بن عبد السلام الذي أعلن أن على السلطان إذا أراد فرض الضرائب أن يأخذ قبل ذلك الحليّ التي في بيته وبيت أمثاله من الأمراء وأن يضربها

نقوداً فإن لم تفِ بالحاجة يفرض بعدها الضرائب، فامتثل سيف الدين قطز بذلك وفعل ما وُجّه إليه.

تمّ الاستعداد، وأرسل سيف الدين قُطُز حملةً استطلاعيةً بإمرة الظاهر بيبرس البندقداري إلى جهات غزة فانتصر على حملةٍ مغوليةٍ متقدمةٍ، وبقي يناور المغول كي لا يعلموا بتحرّك الجيش الرئيسي الذي يقوده السلطان سيف الدين قُطُز.

سار سيف الدين قطز بجيشه على الساحل الشامي باتجاه عكا، وهدّد الصليبيين إن بدرت منهم أية بادرة شرٍّ، وطلب منهم أن يكونوا على الحياد إن لم ينصروا المسلمين، ولم يكن وضعهم يومئذٍ بالذي يساعدهم على التحرّك سواء أكان إلى جانب المسلمين أم إلى جانب المغول.

وافى السلطان سيف الدين قُطُز قائده الظاهر بيبرس عند عين جالوت على مقربةٍ من مدينة بيسان، وتدفّق المغول إلى ذلك الميدان، والتقى الجمعان، واحتدمت المعركة، وهجمت ميمنة المغول على ميسرة المسلمين فتقدّم أمير الجيش الإسلامي سيف الدين قطز وألقى بخوذته على الأرض أمام الأمراء وصاح بأعلى صوته «وا إسلاماه» واندفع نحو المغول يُقاتل، والتفّ

حوله جنود الإسلام وانقضّوا على المغول فأفنوهم، وقُتل قائد المغول «كتبغا» في ميدان المعركة، وأُسر ابنه.

وصلت أخبار معركة عين جالوت إلى دمشق فابتهج المسلمون وانطلقوا يهاجمون المغول ويعملون بهم ذبحاً، وشملت هذه المذبحة النصارى أيضاً الذين وقفوا إلى جانب المغول وأعانوهم على المسلمين، كما استأسدوا على المسلمين أثناء حكم المغول. ولم يستتب الأمن بدمشق إلا بدخول سيف الدين قُطُز إليها في ٢٧ رمضان سنة ٦٥٨هـ أي بعد استسلام قلعتها للمغول بثلاثة أشهرٍ وستة أيامٍ، وهذه المدة التي حكم فيها المغول دمشق.

بدأ المغول يفرّون من بلاد الشام خوفاً من انتقام المسلمين منهم، وتمكّن سيف الدين قُطُز من فتح بلاد الشام بعدة أسابيع. وأعاد بعض الملوك الأيوبيين إلى ممالكهم بعد أن أخذ المواثيق والعهود عليهم بالولاء ودفع الأتاوات السنوية للسلطان في مصر، وكذلك أقطع بعض أمراء المماليك إقطاعاتٍ واسعةً إذ أعطى علم الدين سنجر الحلبي نيابة دمشق يحكمها باسمه، ومنح حلب إلى الملك السعيد علاء الدين بن بدر الدين

لؤلؤ صاحب الموصل، وكان الظاهر بيبرس يرغب بها، وقد طلبها من سيف الدين قطز لملاحقة المغول فلم يقبل منه فأصبح بنفسه شيء عليه.

عاد المماليك إلى مصر، وبينما هم في الطريق تقدّم من السلطان قائد الجيش الملك المظفّر سيف الدين قطز أمير عسكره ركن الدين الظاهر بيبرس البندقداري ووراءه عدد كبير من أمراء الجيش فتناولوه بسيوفهم فقتلوه، ودُفن بالقصير. ثم نُقل إلى القاهرة[1].

اتفق أمراء المماليك على تعيين الظاهر بيبرس سلطاناً على مصر.

---

(١) قيل إن اسم سيف الدين قطز (محمود بن ممدود)، وإن أمه هي أخت جلال الدين خوارزمشاه، وإن أباه هو ابن عمّ جلال الدين خوارزمشاه، وإنما سُبي عند غلبة المغول. فبيع بدمشق ثم نقل إلى القاهرة. النجوم الزاهرة ٧/ ٧٢، فوات الوفيات ٢/ ١٣٢، ذيل الروضتين ٢١٠.

ـ ٥ ـ

الظاهر بيبرس[(١)]

(٦٥٨ ـ ٦٧٦هـ)

اتفق أمراء المماليك بعد مقتل سيف الدين قطز على تسليم السلطنة إلى الظاهر بيبرس. وكان الملك المظفر سيف الدين قُطُز قد استناب على دمشق علم الدين سنجر الحلبي فلما قُتل سيف الدين قُطُز نادى علم الدين سنجر بنفسه سلطاناً، وأخذ شعار السلطنة بعد مقتل قُطُز بشهرٍ واحدٍ، وطلب من الملك الأشرف موسى الأيوبي، والملك المنصور محمد الأيوبي صاحب حماة، والأمير حسام الدين لاجين العزيزي صاحب حلب مساعدته فلم يوافقوه. وسيّر الظاهر بيبرس حملةً إلى دمشق حملت علم الدين سنجر إلى

---

(١) الظاهر بيبرس العلائي البندقداري الصالحي، ركن الدين، الملك الظاهر: ولد في قفقاسيا سنة ٦٢٥هـ، وأُسر فبيع في مدينة سيواس وسط تركيا، ثم نُقل إلى حلب، ومنها إلى القاهرة فاشتراه الأمير علاء الدين إيدكين البندقدار، وبقي عنده، فلما قبض عليه الملك الصالح نجم الدين أيوب أخذ بيبرس فجعله من خاصة خدمه، ثم أعتقه، ولم تزل همته تصعد حتى وصل إلى رتبة سلطان مصر.

القاهرة مقيّداً بالأغلال ولم يمضِ على سلطنته المحلية أكثر من شهرٍ.

وقام رجل بالقاهرة يُدعى «الكوراني» يدعو لنفسه، ويدّعي التشيّع ويرغب في عودة النفوذ العبيدي مرةً أخرى، واستطاع الظاهر بيبرس القضاء عليه بسرعةٍ.

وصل إلى القاهرة في أوائل شهر رجب سنة ٦٥٩هـ أحمد بن محمد الظاهر العباسي فأثبت نسبه العباسي فبايعه السلطان بيبرس بالخلافة كما بايعه قاضي القضاة والشيخ عز الدين بن عبد السلام وذلك في شهر رجب نفسه من السنة نفسها، ولُقّب بالمستنصر، وخطب بالناس يوم الجمعة ودعا للسلطان الظاهر بيبرس.

قرر الخليفة المستنصر التوجّه إلى العراق لقتال المغول فخرج وخرج معه السلطان بيبرس يُشيّعه حتى دمشق وجهّزه بجيشٍ.

قُتل الخليفة المستنصر أثناء قتاله للمغول، وجاء إلى دمشق أبو العباس أحمد بن الحسن العباسي، وراسل الظاهر بيبرس فطلبه فسار إلى القاهرة ومعه ولده وبعض أعوانه فأكرمه الظاهر بيبرس، وأنزله بالبرج الكبير بالقلعة، وبعد أن أثبت أبو العباس نسبه بايعه الظاهر بيبرس وقاضي القضاة والعلماء بالخلافة وذلك

في الثامن من شهر المحرم سنة ٦٦١هـ، وكان مركز الخلافة قد بقي شاغراً مدة سنةٍ بعد استشهاد الخليفة السابق، وتلقّب الخليفة الجديد باسم الحاكم بأمر الله.

ذهب الظاهر بيبرس إلى الحج سنة ٦٦٧هـ، وأزال أعوان الحفصيين في مكة، وبسط نفوذه في الحجاز، وتقرّب من العلماء، وبنى المدارس والمكتبات.

كان الملك الأيوبي موسى الأشرف صاحب حمص، والملك المنصور الأيوبي صاحب حماة قد أعلنا ولاءهما للظاهر بيبرس إلا أن المغيث عمر بن الملك العادل الأيوبي صاحب الكرك كان يرى نفسه أحق بالسلطنة وبحكم مصر من المماليك، وبقي يعمل لذلك، واستطاع الظاهر بيبرس دعوته إلى معسكره في مدينة بيسان فاستجاب له وسار إليه فقبض عليه، ودخل الكرك وعيّن عليها والياً من قبله سنة ٦٦١هـ وبذا صفا له الوضع في بلاد الشام.

تحالف السلطان الظاهر بيبرس مع أمير مغول الشمال بركة خان الذي اعتنق الإسلام سنة ٦٥٠هـ، وتزوج الظاهر بيبرس ابنة بركة خان، وشجّعه للعمل ضدّ هولاكو ابن عمه فكانت بينهما خصومات وقتال.

وتحالف السلطان ظاهر بيبرس مع ملوك بعض

الدول الأوروبية ومنهم: إمبراطور بيزنطة ميخائيل الثامن باليولوج، وإمبراطور الدولة الرومانية الغربية، وملك صقلية، وكان بيبرس يهدف عدم دعم الصليبيين وعدم العمل لإرسال حملاتٍ صليبيةٍ جديدةٍ.

شجّع الظاهر بيبرس الأعراب للإغارة على المغول وقد وصلت غاراتهم حتى بغداد. وبنى الحصون، وعمل المنائر لمراقبة العدو، وربط البلاد بشبكةٍ من المواصلات، ونظّم أمور البريد، وقوّى الجيش والأسطول، وأكثر من استخدام المماليك الجراكسة.

سار السلطان بيبرس إلى بلاد الشام سنة ٦٦٤هـ فاستولى على قيسارية الواقعة على ساحل الشام بين حيفا ويافا، وعلى أرسوف الواقعة إلى الجنوب من قيسارية أخذهما من أيدي الصليبيين، ثم استولى على صفد وعلى يافا سنة ٦٦٦هـ، وهاجم في شهر رمضان من السنة نفسها مدينة أنطاكية من جهة البحر عن طريق السويدية وذلك ليحول دون وصول الإمدادات إليها، وقطع طريق ممر بيلان للغرض نفسه كي لا تصل إلى أنطاكية الإمدادات من إمارة أرمينية الصغرى في كيليكيا، أما القوة الرئيسية المهاجمة للمدينة فكانت بيده

يقودها بنفسه وقد دخل أنطاكية في ١٤ رمضان سنة ٦٦٦هـ.

وهاجم إمارة طرابلس فاستولى على حصن الأكراد (قلعة الحصن)، وحصون عكار (القليعات ـ حلبا ـ عرقه) غير أن حملة صليبيةً جاءت بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع فحمت طرابلس من الوقوع بيد السلطان بيبرس، وأسرع بيبرس إلى مصر خوفاً من أن تسير تلك الحملة الصليبية المعروفة بالحملة الثامنة إلى مصر إذ سبق لملك فرنسا لويس التاسع أن سار إلى مصر واحتلّ دمياط واتجه إلى المنصورة ولا تزال أحلامه تراوده في دخول مصر وخاصةً أنه كان قد أُسر، وفدى نفسه بفداءٍ كبيرٍ فله ثأر إذن ويريد الانتقام، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإنه يعتقد أن احتلال مصر هو الوسيلة لأخذ بيت المقدس وبقاء الحماية له. غير أن هذه الحملة الصليبية الثامنة قد اتجهت إلى تونس بناءً على طلب أخي الملك لويس التاسع الذي كان ملكاً لصقلية حيث كان يريد أن يغزو تونس ويقاتل حكامها من الحفصيين.

اطمأن السلطان بيبرس بعد مسير الحملة الصليبية الثامنة إلى تونس وبعد أن كان يستعدّ لمواجهتها ترك استعداده وانطلق ثانيةً إلى طرابلس وذلك سنة ٦٧٠هـ غير

أن أمير طرابلس بوهمند قد طلب المسالمة والصلح فأجابه السلطان بيبرس إلى ذلك لأن حملةً صليبيةً جديدةً قد جاءت بقيادة الأمير أدوارد ونزلت بعكا، فإن لم يقبل بالصلح يصبح بين نارين، وكان الصلح يصبح بين الظاهر بيبرس وأمير طرابلس الصليبي بوهمند لمدة عشر سنواتٍ.

غزا السلطان بيبرس جزيرة قبرص التي كان ملكها هيو الثالث من ألدّ أعداء الإسلام، وله أطماع صليبية، واتخذ الصليبيون من بلاده قاعدةً ينطلقون منها وإليها للوصول إلى بلاد الشام أثناء الإبحار، لكن أسطول السلطان بيبرس قد تحطّم عند شواطئ الجزيرة بسبب عاصفةٍ بحريةٍ.

وحارب السلطان بيبرس إمارة أرمينية الصغرى وهي بأرض كيليكيا، انتقل إليها الأرمن إثر انسياح السلاجقة في آسيا الصغرى وأسسوا فيها دولةً كانت دعامةً للصليبيين طيلة أيامها، وقد وقفت تعادي السلطان بيبرس وتدعم الصليبيين، وتمنع تصدير الخشب والحديد إلى مصر، وقد استطاع بيبرس من الانتصار على هذه الدولة، وأسر عدداً من قادتها منهم ابن أميرها هيثوم الأول، وغدت هذه الدولة ضعيفةً بعد ذلك.

وتكررت اعتداءات أهل النوبة على أرض مصر

فأرسل إليهم السلطان بيبرس قوةً سنة ٦٧٤هـ تمكّنت من الانتصار عليهم وأسر ملكهم الذي أُرسل إلى بيبرس، ووُضعت الجزية على أهل النوبة ودنقلة.

هلك طاغية المغول هولاكو سنة ٦٦٣هـ وتولّى ابنه (أباقاخان) وأخذ يتصل بالصليبيين إذ كان يعطف على النصارى، وتزوّج ابنة امبراطور القسطنطينية. وقد حاول أباقاخان أن يعقد صلحاً مع المماليك مقابل الخضوع له غير أن الظاهر بيبرس رفض ذلك، فأغار المغول على الرحبة فأرسل بيبرس حملةً انتصرت على المغول عند نهر الفرات.

اتجه السلطان بيبرس سنة ٦٧٥هـ إلى آسيا الصغرى فالتقى بجيشٍ مغولي فهزمه وقتل سبعة آلاف رجلٍ منه، ودخل مدينة قيصرية حاضرة السلاجقة، ولم يستطع تقوية حصون المناطق التي استولى عليها للوقوف في وجه المغول حيث شعر بالتعب.

توفي السلطان بيبرس في ٢٧ المحرم سنة ٦٧٦هـ، وعمره إحدى وخمسون سنةً.

كان السلطان بيبرس طويل القامة، أسمر اللون، أزرق العينين، في إحدى عينيه أثر بياضٍ، جهوري الصوت، شجاعاً.

- ٦ -
السعيد بركة
(٦٧٦ ـ ٦٧٨هـ)

تولّى السلطنة في مصر بعد الظاهر بيبرس ابنه محمد بركة خان ولُقّب الملك السعيد، ويُكنى أبو المعالي ناصر الدين، وكان عمره ثماني عشرة سنةً، وكان أبوه قد عهد له بالسلطنة منذ سنة ٦٦٣هـ أي عندما كان عمره أربع سنوات، إذ وُلد هو سنة ٦٥٩هـ.

تزوج الملك السعيد سنة ٦٧٥هـ ابنة الأمير سيف الدين قلاوون الألفي. ولم يلبث في السلطنة سوى سنتين حيث انفضّ المماليك من حوله للهوه، وسُيّر ليكون ملكاً على الكرك والشوبك، وعُيّن مكانه أخوه بدر الدين سلامش، وكان صغيراً لا يزيد عمره على السبع سنوات، وعُيّن الأمير سيف الدين قلاوون أميراً أباً (أتابكاً) له.

لُقّب بدر الدين سلامش بالملك العادل غير أنه لم يلبث أن خُلع، وعُيّن الأمير سيف الدين قلاوون.

توفي الملك السعيد في الكرك يوم الخميس ١١ ذي القعدة سنة ٦٧٨هـ وتولّى أمر الكرك مكانه أخوه نجم الدين خضر.

ـ ٧ ـ

الملك العادل بدر الدين

(٦٧٨ ـ ٦٧٨هـ)

هو بدر الدين سلامش بن السلطان الظاهر بيبرس، وُلد سنة ٦٧١هـ. وعندما خُلع أخوه الملك السعيد سنة ٦٧٨هـ، وسُيّر إلى الكرك ليكون ملكاً عليها وعلى الشوبك، أُتي بأخيه بدر الدين وعُيّن سلطاناً وعمره لا يزيد على السبع سنوات، وعُيّن سيف الدين قلاوون مشرفاً عليه ومدبراً لشؤون الدولة. ولُقّب بدر الدين بالملك العادل، غير أنه لم يلبث أن خُلع، وبايع المماليك الأمير سيف الدين قلاوون سلطاناً على مصر ولقّبوه بالملك المنصور.

- ٨ -
المنصور قلاوون
(٦٧٨ - ٦٨٩هـ)

المنصور قلاوون هو قلاوون الألفي العلائي الصالحي النجمي، أبو المعالي، سيف الدين، الملك المنصور: ولد سنة ٦٢٠هـ في بلاد القفقاس (بلاد الجراكسة)، مملوك اشتراه علاء الدين آق سنقر أحد مماليك الملك العادل أبي بكر بن نجم الدين أيوب، اشتراه بألف دينارٍ، وهو مبلغ ضخم لذا عُرف بالألفي، ونُسب إلى الذي اشتراه وهو علاء الدين آق سنقر فهو العلائي، ثم أخذه الملك الصالح نجم الدين أيوب فهو الصالحي والنجمي، وهو أبو السلطان الناصر محمد.

أعتقه الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧هـ فأخلص الخدمة للظاهر بيبرس، وقام بأمور الدولة في أيام الملك العادل بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس، فكان يُخطب له وللملك العادل على منابر مصر، وضُربت السكّة باسمهما، ثم خُلع الملك العادل، وتولّى السلطنة منفرداً سنة ٦٧٨هـ، وجلس على سرير الملك في قلعة الجبل، ولُقِّب بالملك المنصور.

مرض الأمير نائب دمشق شمس الدين سنقر

الأشقر فانتقل إلى مصر، وأخذ لنفسه البيعة من الأمراء سلطاناً وتلقّب بالملك الكامل وأرسل جيشاً إلى غزة لحماية أطراف سلطنته.

أخذ الملك المنصور قلاوون الكرك من نجم الدين خضر بن الظاهر بيبرس، ثم بعث جيشاً بقيادة علم الدين سنجر الحلبي إلى غزة فانتصر على جيش الملك العادل، وتابع سيره إلى دمشق فخرج منها الملك الكامل ودخل علم الدين سنجر المدينة، وتولّى حكمها حسام الدين لاجين ومعه علم الدين سنجر بأمر المنصور قلاوون، وانطلق الملك الكامل باتجاه الرحبة في الشمال الشرقي ثم عاد فاتجه نحو الساحل فأخذ بعض الحصون والمدن فأرسل له الملك المنصور قلاوون جيشاً لقتاله.

عندما علم المغول بتفرّق كلمة المسلمين واختلافهم تحرّكوا نحو بلاد الشام فدخلوا مدينة حلب وقتلوا وسبوا ما شاء لهم هواهم، وظنّوا أن الملك الكامل سنقر الأشقر سيكون إلى جانبهم ضد السلطان قلاوون. وانطلق السلطان بجيشه نحو بلاد الشام، وراسل الملك الكامل سنقر ليكونا معاً ضد المغول فأجابه إلى ذلك واستعدّ، فلما سمع المغول بوحدة كلمة

المسلمين رجعوا عن بلاد الشام كما رجع السلطان قلاوون إلى مصر.

وخرج السلطان قلاوون من مصر سنة ٦٨٠هـ، وطلب من الملك الكامل سنقر حشد الجيوش والمساعدة فأجابه، واتجهت الجموع نحو حمص، وجاء المغول من الشمال إلى مدينة عينتاب في تركيا إلى الشمال من حلب كما جاءت جموع منهم من ناحية الرحبة من جهة الشرق ونازلوا الأعراب، والتقى المسلمون بالمغول يوم الخميس الرابع عشر من شهر رجب سنة ٦٨٠هـ وكان ميدان المعركة يمتدّ من شمال حمص قرب مسجد خالد بن الوليد حتى بلدة الرستن في منتصف الطريق بين حمص وحماة، وهُزم المسلمون في بداية الأمر، ووصل بعضهم متراجعين إلى بحيرة حمص (قطينة)، ثم ثبت السلطان وثبت معه سنقر الأشقر وكبار الأمراء وحملوا حملةً صادقةً على المغول فهزموهم ـ بإذن الله ـ وانقسم المغول إلى فرقتين فرّت إحداهما باتجاه السلمية والبرية، وفرّت الثانية باتجاه حلب والفرات وغرق قسم كبير منها في النهر عند محاولة عبوره، ورجع السلطان إلى مصر بعد هذا النصر، ورجع الملك الكامل سنقر الأشقر إلى حصن

صهيون في جبال شمال غربي الشام، وقد ودّع السلطان من حمص.

وتوفي طاغية المغول أباقاخان بن هولاكو سنة ٦٨٠هـ، وخلفه أخوه أحمد وكان قد أسلم بعد أن نشأ على النصرانية، وعندما آل إليه أمر الأسرة الإيلخانية التي أسسها أبوه هولاكو راسل السلطان المنصور قلاوون ليكون بينهما صلح لحقن دماء المسلمين وقد تمّ ذلك.

وفتح السلطان المنصور قلاوون قلعة المرقب وما حولها من تلك الجهات في شمال غربي الشام فخافه أمير طرابلس الصليبي فهدم الحصون من باب التقرّب إذ كان ذلك رغبةً من السلطان، وذلك سنة ٦٨٤هـ.

استسلم الملك الكامل سنقر الأشقر سنة ٦٨٤هـ إلى نائب دمشق حسام الدين لاجين، وسار إلى السلطان المنصور قلاوون فأحسن استقباله.

سار السلطان منصور قلاوون سنة ٦٨٨هـ إلى دمشق، ومنها إلى طرابلس فحاصرها وفتحها، وكانت قد بقيت بأيدي الصليبيين ١٨٥ سنةً أيّ منذ سنة ٥٠٣هـ.

وهاجم ملك النوبة مدينة أسوان في جنوبي مصر

ونهبها فأرسل إليه السلطان قلاوون قوةً تمكّنت من هزيمته ـ بإذن الله ـ وغنمت منه مغانم كثيرةً.

توفي السلطان قلاوون سنة ٦٨٩هـ وخلفه ابنه الأشرف صلاح الدين خليل، وهو ولده الثاني، وكان ولي عهده ابنه الأول علاء الدين عليّ قد توفي سنة ٦٨٧هـ.

كان السلطان الناصر قلاوون من أجلّ ملوك المماليك قدراً، ومن أكثرهم آثاراً، شجاعاً، كثير الفتوحات، أبطل بعض المظالم، ومن آثاره البيمارستان (المشفى) بين القصرين، كان قليل الكلام باللغة العربية.

كانت مدة سلطنته إحدى عشرة سنةً وثلاثة أشهرٍ.

- ٩ -

الأشرف خليل
(٦٨٩ _ ٦٩٣هـ)

هو خليل بن السلطان قلاوون، ولد سنة ٦٦٦هـ، ولي السلطنة بعد وفاة أبيه سنة ٦٨٩هـ، وهو الولد الثاني لأبيه، وكان الولد الأول عليّ، هو ولي عهد أبيه ولكنه توفي سنة ٦٨٧هـ في حياة أبيه. وعندما ولي السلطنة لُقّب الأشرف صلاح الدين.

كان السلطان قلاوون قد عزم على فتح عكا، فلما تولّى ابنه الأشرف خليل سار من مصر إليها، ودعا الجند من دمشق وطرابلس وحماة فجاء المجاهدون وحاصروا عكا، وتمّ فتحها يوم الجمعة السابع عشر من شهر جمادى الأولى سنة ٦٩٠هـ، وفرّ من لم يُقتل من الصليبيين عن طريق البحر، كما استردّ صور وصيدا، وأخذ نائبه على دمشق علم الدين سنجر بيروت، كما سُلّمت له جبيل وطرطوس، كما أخذ بيسان في الداخل، ولم يبق للصليبيين أي أثر في بلاد الشام والسواحل.

أرسل الأشرف خليل قوةً إلى كسروان في جبل لبنان لأن النصارى في هذه المنطقة كانوا دعماً للصليبيين.

وهاجم بلاد الروم ودخل قلعة الروم في غرب نهر الفرات في تركيا.

قُتل الأشرف خليل سنة ٦٩٣هـ بيد أمراء المماليك وهو في الصيد، واتفقوا على تعيين نائبه الأمير (بيدرا) سلطاناً مكانه، وكان الأمير (بيدرا) أول الأمراء الذين رموا الأشرف خليل. ولُقّب الأمير (بيدرا) بالملك القاهر غير أنه قُتل في اليوم الثاني بأمرٍ من الأمير كتبغا الذي اتفق بعدئذٍ مع علم الدين سنجر الشجاعي على تعيين محمد بن السلطان قلاوون ولُقّب بالملك الناصر.

كان الأشرف خليل شجاعاً، مهيباً، عالي الهمّة، جواداً، له آثار عمرانية.

- ١٠ -

الناصر محمد
(٦٩٣ ـ ٦٩٤هـ)

هو محمد بن قلاوون بن عبد الله الصالحي، أبو الفتح، وُلد سنة ٦٨٤هـ، وكانت إقامته في طفولته بدمشق.

قُتل الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن محمد قلاوون سنة ٦٩٣هـ، وعُيّن سلطاناً مكانه نائبه (بيدرا) غير أنه قُتل في اليوم الثاني وعُيّن محمد بن السلطان قلاوون، ولُقّب بالملك الناصر، وكان عمره يوم ذاك تسع سنواتٍ، ولم يلبث أن خُلع ولم تمضِ سنة على سلطنته، وأُلزم على البقاء في البيت، وتولّى أمر السلطنة الأمير كتبغا، ولُقّب بالملك العادل.

- ١١ -

العادل كتبغا

(٦٩٤ ـ ٦٩٦هـ)

كتبغا من أصلٍ مغوليٍ وُلد سنة ٦٣٩هـ، وكان في عسكر هولاكو فأُخذ مع الأسرى في وقعة حمص الأولى سنة ٦٥٩هـ فأخذه المنصور قلاوون وجعله من مماليكه فنُسب إليه فيقال: كتبغا المنصوري، وتقدّم في الخدمة إلى أن تولّى السلطنة الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦٩٣هـ فجعله نائب السلطنة، وخُلع الناصر محمد لصغر سنه فتولّى السلطنة كتبغا، وتلقّب بالملك العادل.

ذهب السلطان كتبغا إلى دمشق ومعه نائبه على مصر حسام الدين لاجين، ورجع نائبه إلى مصر لتدبير شؤون المملكة فاتفق مع الأمراء فاستولى على السلطنة وأرسل إلى كتبغا يأمره بخلع نفسه فأذعن كتبغا وأشهر على نفسه بالخلع وهو في دمشق وذلك سنة ٦٩٦هـ، فكانت مدة سلطنته سنتين وواحدٍ وخمسين يوماً.

أُوعز إلى كتبغا بالانتقال إلى صلخد فأقام بها مُعزّزاً مكرّماً إلى سنة ٦٩٩هـ، وعاد الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى السلطنة فأعطى كتبغا مملكة حماة وأعمالها فانتقل إليها سنة ٦٩٩هـ واستمرّ إلى أن توفي

بها سنة ٧٠٢هـ، ثم نُقلت جُثّته إلى دمشق. وكان ذا دينٍ وشجاعةٍ.

ـ ١٢ ـ
المنصور لاجين
(٦٩٦ ـ ٦٩٨هـ)

المنصور لاجين هو حسام الدين المنصوري. ويُسمّى «الروك» الحسامي، ولد سنة ٦٣٥هـ، كان مملوكاً للمنصور قلاوون، وإليه نسبته. ولي نيابة السلطنة في أيام الملك العادل كتبغا، ثم خلعه وولي السلطنة مكانه سنة ٦٩٦هـ، وتلقّب بالملك المنصور، وجعل مملوكه «منكوتمر» نائباً للسلطنة.

أساء منكوتمر السيرة فكره الناس لاجين فقام بعض مماليك الأشرف صلاح الدين خليل فقتلوه في قصره وقتلوا أيضاً نائبه منكوتمر سنة ٦٩٨هـ. وأُعيد الملك الناصر محمد بن قلاوون سلطاناً.

كان المنصور لاجين مهيب الشكل موصوفاً بالفروسية، عاقلاً يحب العدل ومجالسة العلماء، أبطل كثيراً من المكوس.

ـ ١٣ ـ

الناصر محمد «للمرة الثانية»

(٦٩٨ ـ ٧٠٨هـ)

أُعيد الناصر محمد بن المنصور قلاوون سلطاناً بعد أن قُتل المنصور لاجين.

توفي طاغية دولة المغول الإيلخانية أرغون بن أباقاخان بن هولاكو سنة ٦٩١هـ، وتولّى مكانه أخوه (كيغاتو) فسار على نهج أخيه في عدائه للإسلام، ولكنه لم يلبث طويلاً إذ قُتل سنة ٦٩٣هـ، وخلفه ابن عمه بيرو بن طرخاي بن هولاكو فقُتل سنة ٦٩٥هـ لسوء خلقه، وتولّى بعده غازان بن أرغون وقد نشأ على البوذية ثم اعتنق الإسلام سنة ٦٩٤هـ وتسمّى باسم محمود، وآل إليه أمر الدولة الإيلخانية سنة ٦٩٥هـ، وعندما أسلم غازان أسلمت معه أسرة تولوي كلها، وأسلم معه سبعون ألفاً من المغول، وغدت الدولة الإيلخانية مسلمةً. إلا أن هذا الإسلام لم يَحُل دون قتال المسلمين والعمل على حربهم.

قرّر غازان سنة ٦٩٨هـ غزو بلاد الشام بعد أن وصل إليه نائب دمشق الأمير قبجق مع عددٍ من كبار الأمراء، وجرى القتال في معارك هامشيةٍ، وكان الغزو

سنة ٦٩٩هـ دون أن يحرز غازان نصراً وانسحب من الشام، وقد برّر غازان غزوه وانسحابه بكتابٍ أرسله إلى السلطان الناصر محمد فقال: إن قوات من مصر قد اتجهت لقتاله وهو لا يريد حرب المسلمين، وأن انسحابه من الشام إرضاءً لأهلها. وأرسل الناصر محمد بن قلاوون وفداً للمفاوضة ولكن لم تُجدِ المفاوضات واستمرّ الصراع بين الطرفين.

وضعف أمر المغول في ديار بكر حتى أصبح الأهالي يتتبعون المغول ويقتلون منهم من استطاعوا قتله. فأخذت حاكم آمد المغولي الكبرياء واتجه إلى مصر مع عددٍ من كبار أمراء المغول وذلك سنة ٧٠٣هـ، وأرسل غازان إلى نائب دمشق يدعوه إلى الطاعة لزيادة قوة المسلمين إذ أن قوات المماليك تعيث الفساد بغاراتها على ماردين وديار بكر، ويبرّر الحملة التي قادها إلى بلاد الشام.

التقت قوات المسلمين التي اشترك فيها الخليفة المستكفي بالله بنفسه والسلطان الناصر محمد بن قلاوون بقوات المغول بشقحب شمال مرج الصفّر بالشام جنوب دمشق بحوالي ثلاثين كيلاً. وهُزم المغول وولّوا الأدبار وفقدوا الكثير منهم بل لم ينجُ منهم إلا

القليل وذلك في شهر رمضان من سنة ٧٠٢هـ، وقد شارك شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ في هذه المعركة.

عندما أُعيد السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى السلطنة سنة ٦٩٨هـ أقام في القلعة كالمحجور عليه وأعمال السلطنة بيد الأمير بيبرس الجاشنكير ونائب السلطنة الأمير سلّار، واستمرّ ذلك مدةً ضاق بها صدره من تحكّمهما، فأظهر العزم على الحج، فلما جاء الموسم سنة ٧٠٨هـ توجّه بعائلته وحاشيته ومماليكه وخيله، فودّعه بيبرس الجاشنكير وسلّار وبقية الأمراء وهم على خيولهم لم يترجّلوا له.

سار السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى الكرك فنزل بقلعتها واستولى على ما فيها من أموالٍ، وأعلن أنه قد انثنى عزمه عن الحج، واختار الإقامة بالكرك، وترك السلطنة، وكتب إلى الأمراء في مصر بذلك فاجتمع هؤلاء الأمراء ونادوا بالأمير بيبرس الجاشنكير سلطاناً على مصر سنة ٧٠٨هـ، ولقّبوه بالملك المظفّر.

ـ ١٤ ـ
المظفّر بيبرس الجاشنكير
(٧٠٨ ـ ٧٠٩هـ)

هو بيبرس الجاشنكير المنصوري، ركن الدين، الملك المظفّر كان من مماليك المنصور قلاوون ونسبته إليه، وصار أميراً في أيامه، وصار من كبار الأمراء في دولة الأشرف صلاح الدين خليل بن المنصور قلاوون، ولما صار الناصر محمد بن قلاوون سلطاناً بعد مقتل أخيه الأشرف خليل صار بيبرس الجاشنكير مسؤولاً عن دار السلطنة، وبقي ذا مكانةٍ أيام العادل كتبغا والمنصور لاجين وكذا أيام الناصر محمد للمرة الثانية في السلطنة، لكنه استبد هو ونائب السلطنة الأمير سلّار بالسلطان الناصر محمد حتى ضاق صدره فذهب إلى الكرك واعتزل السلطنة فألحّ الأمراء والقادة على بيبرس الجاشنكير أن يتولّى أمر السلطنة، وخاف الفتنة فتسلّم السلطنة سنة ٧٠٨هـ وتلقّب بالملك المظفّر.

ما كاد يستقرّ الملك المظفّر حتى جاءه من الكرك أن الناصر محمد يستكثر من الخيل والمماليك فبعث إليه يطلبها، فامتنع الناصر محمد وسجن رسول المظفّر بيبرس، وذاع ذلك في مصر وكان أهلها يميلون إلى

الناصر محمد، وقد نفروا من المظفّر بيبرس، وفرّ بعض قادة المماليك بمصر ولحقوا بالملك الناصر وقوّوا عزمه على الزحف إلى مصر فوثب ودخل دمشق، وزحف إلى مصر وتقدّم مهاجماً فتخلّى أعوان المظفّر عنه، ومضوا لنصرة الناصر محمد، وكان يكره سفك الدماء فخرج من دار ملكه يريد مكاناً يأوي إليه بمن بقي معه من مماليكه، وانتهى أمره بأن استسلم للناصر محمد ، فلما مثل بين يديه عاتبه الملك الناصر على أمورٍ بدرت منه، فاعتذر، وكان بيد الملك الناصر وتر فطوّق به عنق الملك المظفّر إلى أن خنقه، وشرّد أعوانه.

وكانت مدة تسلّم المظفّر بيبرس الجاشنكير عشرة أشهرٍ وأربعةً وعشرين يوماً لم يهنأ له فيها بال.

- ١٥ -

الناصر محمد «للمرة الثالثة».
(٧٠٩ ـ ٧٤١هـ)

عاد الناصر محمد إلى سلطانه سنة ٧٠٩هـ وامتلك قيادة الدولة فخُطب له بمصر، والشام، وديار بكر، والحجاز، وطرابلس الغرب، وأتته هدايا ملوك المغرب، والتكرور، والحبشة، والنوبة، والترك.

أرسل السلطان الناصر حملةً إلى آسيا الصغرى بإمرة أمير الشام تنكز سنة ٧١٥هـ فاستطاعت دخول مدينة ملاطية على نهر الفرات.

وأرسل حملةً في السنة نفسها ٧١٥هـ إلى بلاد النوبة انتصرت على النوبيين. ثم أرسل في السنة التالية حملةً ثانيةً وتمكّنت من إقامة ملكٍ مسلمٍ على بلاد النوبة هو (عبد الله برشنبو) ابن أخ الملك داود ملك النوبة وهذا ما سهّل انتشار الإسلام هناك، ثم دخل السلطان الناصر محمد دنقلة سنة ٧١٨هـ، ودخلت بعدها بلاد النوبة بالإسلام.

وخرجت النصيرية عن الطاعة سنة ٧١٧هـ وهي في شمال غربي بلاد الشام، وأطلق قادتها على رجلٍ منهم يُدعى محمد بن الحسن المهدي «القائم بأمر الله»،

وعاثوا في البلاد الفساد، ونادوا (لا إله إلا عليّ) فأرسل لهم السلطان حملةً أخضعتهم.

وقبض السلطان على الخليفة المستكفي بالله سنة ٧٣٦هـ ومنعه من الاجتماع بالناس، ثم نفاه في آخر السنة إلى بلدة (قوص) في جنوبي مصر، كما نفى معه أهله، وبقي الخليفة في منفاه حتى توفي سنة ٧٤٠هـ. وبايع السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى الواثق بالله، ولم ينظر إلى عهد الخليفة السابق المستكفي بالله بالبيعة لابنه أحمد (الحاكم بأمر الله). ولكن لما حانت الوفاة السلطان ندم على ما فعل لأن الخليفة الذي عيّنه وهو الواثق بالله لم يكن أهلاً للخلافة لذا أوصى بعزله ومبايعة أحمد بن المستكفي.

توفي السلطان الناصر محمد بن قلاوون في شهر ذي الحجة سنة ٧٤١هـ، وبذا فقد استمر سلطانه في المرة الثالثة ٣٢ سنةً وشهرين و٢٥ يوماً.

أحدث السلطان الناصر محمد بن قلاوون كثيراً من العمران، ومما بقي من آثاره بمصر: الترعة المعروفة اليوم بـ(المحمودية)، والخليج الناصري، وتجديد القلعة.

كان كريماً، وقوراً، مهيباً، بعيداً عن الكلام

الفاحش، بعيداً عن الظلم، وقد أولع بكرائم الخيل، فكان في اسطبلاته بعد وفاته ٤٨٠٠ فرس.

ـ ١٦ ـ

المنصور أبو بكر

(٧٤١ ـ ٧٤٢هـ)

هو أبو بكر بن السلطان الناصر محمد بن المنصور قلاوون، ويُلقّب بالمنصور سيف الدين، ولما تولّى أمر السلطنة عقد مجلساً يوم الخميس الحادي عشر من شهر ذي الحجة سنة ٧٤١هـ. أي في اليوم الثاني من العيد الأضحى، وطلب الخليفة إبراهيم بن محمد (الواثق بالله)، وولي عهد المستكفي بالله ولده أحمد، والقضاة، وقال: من يستحق الخلافة شرعاً؟ فقال ابن جماعة[1]: إن الخليفة المستكفي المتوفى بمدينة (قوص) أوصى من بعده بالخلافة لولده أحمد، وأشهد عليه أربعين عدلاً بمدينة قوص، وثبت ذلك عندي بعد ثبوته عند نائبي بمدينة قوص. فخلع السلطان الناصر محمد

(١) ابن جماعة: عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن جماعة الكناني، الحموي الأصل، الدمشقي المولد، ثم المصري، عز الدين: الحافظ، قاضي القضاة. ولي قضاء الديار المصرية سنة ٧٣٩هـ، وجاور بالحجاز، ومات بمكة المكرمة سنة ٧٦٧هـ. له عدد من الكتب منها: «هداية السالك إلى المذاهب الأربعة في المناسك» و«مختصر في السيرة النبوية» و...

حينئذٍ إبراهيم (الواثق بالله)، وبايع أحمد، وبايعه القضاة، ولقّبه (المستنصر)، ثم لُقّب (الحاكم بأمر الله).

خُلع السلطان المنصور سيف الدين بن الناصر محمد سنة ٧٤٢هـ، ولم يُكمل عامه في السلطنة، وكان خلعه للهوه وفساده وتعاطيه الخمور، ونُفي إلى مدينة قوص، ثم قُتل بها، وتولّى السلطنة بعده أخوه الأشرف علاء الدين كجك.

- ١٧ -

الأشرف علاء الدين كجك

(٧٤٢ ـ ٧٤٢هـ)

الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون تولّى أمر السلطنة بعد خلع أخيه المنصور سيف الدين أبي بكر.

خُلع الأشرف علاء الدين كجك قبل أن يُكمل سنةً في السلطنة.

- ١٨ -

الناصر شهاب الدين أحمد

(٧٤٢ _ ٧٤٣هـ)

الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون تولّى أمر السلطنة بعد خلع أخيه الأشرف علاء الدين كجك.

خُلع الناصر شهاب الدين أحمد سنة ٧٤٣هـ.

ـ ١٩ ـ
الصالح إسماعيل
(٧٤٣ ـ ٧٤٦هـ)

الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون تولّى أمر السلطنة بعد خلع أخيه الناصر شهاب الدين أحمد.

توفي الصالح إسماعيل سنة ٧٤٦هـ.

\- ٢٠ -

الكامل شعبان

(٧٤٦ - ٧٤٧هـ)

الكامل شعبان بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون تولّى أمر السلطنة بعد أن توفي أخوه الصالح إسماعيل. وقد قلّده أمر السلطنة الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد بن سليمان المستكفي.

قُتل الكامل شعبان قبل مرور سنةٍ على استلامه أمر السلطنة.

ـ ٢١ ـ
المظفّر أمير حاج
(٧٤٧ ـ ٧٤٨هـ)

المظفّر أمير حاج بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون تولّى أمر السلطنة بعد مقتل أخيه الكامل في شهر شعبان سنة ٧٤٧هـ.

قُتل المظفّر أمير حاج بعد أقلّ من سنةٍ على تسلّمه السلطنة.

- ٣٢ -

الناصر حسن
(٧٤٨ ـ ٧٥٢هـ)

الناصر حسن بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون تولّى أمر السلطنة بعد مقتل أخيه المظفر أمير حاج سنة ٧٤٨هـ.

خُلع الناصر حسن سنة ٧٥٢هـ بعد استلامه السلطنة بأربع سنوات.

ـ ٢٣ ـ
الصالح صلاح الدين صالح
(٧٥٢ ـ ٧٥٥هـ)

الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون تولّى أمر السلطنة بعد أن خُلع أخوه الناصر حسن سنة ٧٥٢هـ.

خُلع الصالح صلاح الدين صالح بعد ثلاث سنواتٍ من تسلّمه السلطنة، وذلك سنة ٧٥٥هـ، وأُعيد أخوه الناصر حسن.

ـ ٢٤ ـ

الناصر حسن «للمرة الثانية»

(٧٥٥ ـ ٧٦٢هـ)

الناصر حسن بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون كان قد تولّى السلطنة مدة أربع سنواتٍ (٧٤٨ ـ ٧٥٢هـ)، وقد بقي في هذه المرة الثانية سبع سنواتٍ حيث قُتل سنة ٧٦٢هـ.

وأُعطيت السلطنة لابن أخيه وهو المنصور محمد بن المظفّر أمير حاج.

ـ ٢٥ ـ

المنصور محمد

(٧٦٢ ـ ٧٦٤هـ)

المنصور محمد بن المظفّر أمير حاج بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون تسلّم أمر السلطنة بعد مقتل عمّه الناصر حسن سنة ٧٦٢هـ.

خُلع السلطان المنصور محمد سنة ٧٦٤هـ وذلك بعد تسلّمه السلطنة بسنتين.

- ٢٦ -
الأشرف شعبان
(٧٦٤ _ ٧٧٨هـ)

الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون تولّى أمر السلطنة بعد أن خُلع ابن عمّه المنصور محمد بن المظفّر أمير حاج.

استولى الصليبيون ومعهم ملك جزيرة قبرص بطرس الأول على الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ، وذلك أن الحروب الصليبية لم تنته بطرد الصليبيين من عكا سنة ٦٩٠هـ والانتهاء منهم من بلاد الشام كلها أيام الأشرف صلاح الدين خليل بن المنصور قلاوون ثم طردهم من جزيرة ارواد أيام الناصر محمد بن المنصور قلاوون سنة ٧٠٢هـ، وإنما استمرت الحروب الصليبية لأن كثيراً من الصليبيين قد لجؤوا إلى جزيرة قبرص بعد طردهم من بلاد الشام، وجعلوا هذه الجزيرة مستقراً لهم، وأخذوا يقومون منها بغزو بلاد المسلمين والإغارة عليها كلما وجدوا الفرصة سانحةً لهم.

وكانت أسرة (لوزجنان) التي حكمت الجزيرة في تلك الآونة تقوم بهذه المهمّة، وقد تولّى أمر هذه الأسرة وحكم الجزيرة سنة ٧٦٠هـ بطرس الأول، وقد

زار غربي أوروبا ودعا البابا وملوك أوروبا لمساعدته للقيام بحربٍ ضد المسلمين، فحصل على بعض التأييد وسار مع من جاءه من الصليبيين واحتلّوا الإسكندرية.

قُتل الأشرف شعبان سنة ٧٧٨هـ بعد مرور أربع عشرة سنةً على استلامه السلطنة، وسُلّم الأمر من بعده لابنه المنصور عليّ.

ـ ٣٧ ـ

المنصور عليّ
(٧٧٨ ـ ٧٨٣هـ)

المنصور عليّ بن الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون تولّى أمر السلطنة بعد مقتل أبيه الأشرف شعبان سنة ٧٧٨هـ.

توفي السلطان المنصور عليّ سنة ٧٨٣هـ، وتسلّم السلطنة من بعده أخوه الصالح حاجي. وقد استمرّت سلطنة المنصور عليّ خمس سنوات.

- ٢٨ -

الصالح حاجي
(٧٨٣ - ٧٨٤هـ)

الصالح حاجي بن الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون تولّى أمر السلطنة بعد وفاة أخيه المنصور عليّ سنة ٧٨٣هـ.

بقي السلطان الصالح حاجي في السلطنة مدة سنةٍ ثم خُلع وأخذ السلطنة الظاهر برقوق وهو أول المماليك الجراكسة وذلك سنة ٧٨٤هـ.

السلطان برقوق
من المماليك الجراكسة

تمكّن الظاهر برقوق سنة ٧٨٤هـ من السيطرة على أمور الدولة فخلع السلطان الصالح حاجي وتسلّم زمام الأمر.

قبض السلطان برقوق سنة ٧٨٥هـ على الخليفة المتوكل على الله وسجنه في قلعة الجبل، وخلعه من الخلافة، وبايع الخليفة محمد بن الواثق بالله إبراهيم ولقّبه بلقب أبيه الواثق بالله وبقي في الخلافة مدة ثلاث سنواتٍ حيث توفي سنة ٧٨٨هـ، وطلب الناس من السلطان برقوق إعادة الخليفة المتوكل على الله فلم يقبل، وإنما طلب زكريا أخا الواثق والذي جلس على كرسي الخلافة مدة خمسة عشر يوماً من غير بيعةٍ وذلك سنة ٧٨٩هـ، ثم ولّاه الخلافة، وأطلق عليه لقب (المستعصم بالله) وبقي بالخلافة حتى سنة ٧٩١هـ حيث ندم السلطان برقوق على ما فعل، فأخرج المتوكل على الله من السجن، وأعاد إليه الخلافة، وخَلع المستعصم بالله الذي لزم بيته حتى مات. واستمرّ المتوكل على الله في الخلافة حتى سنة ٨٠٨هـ.

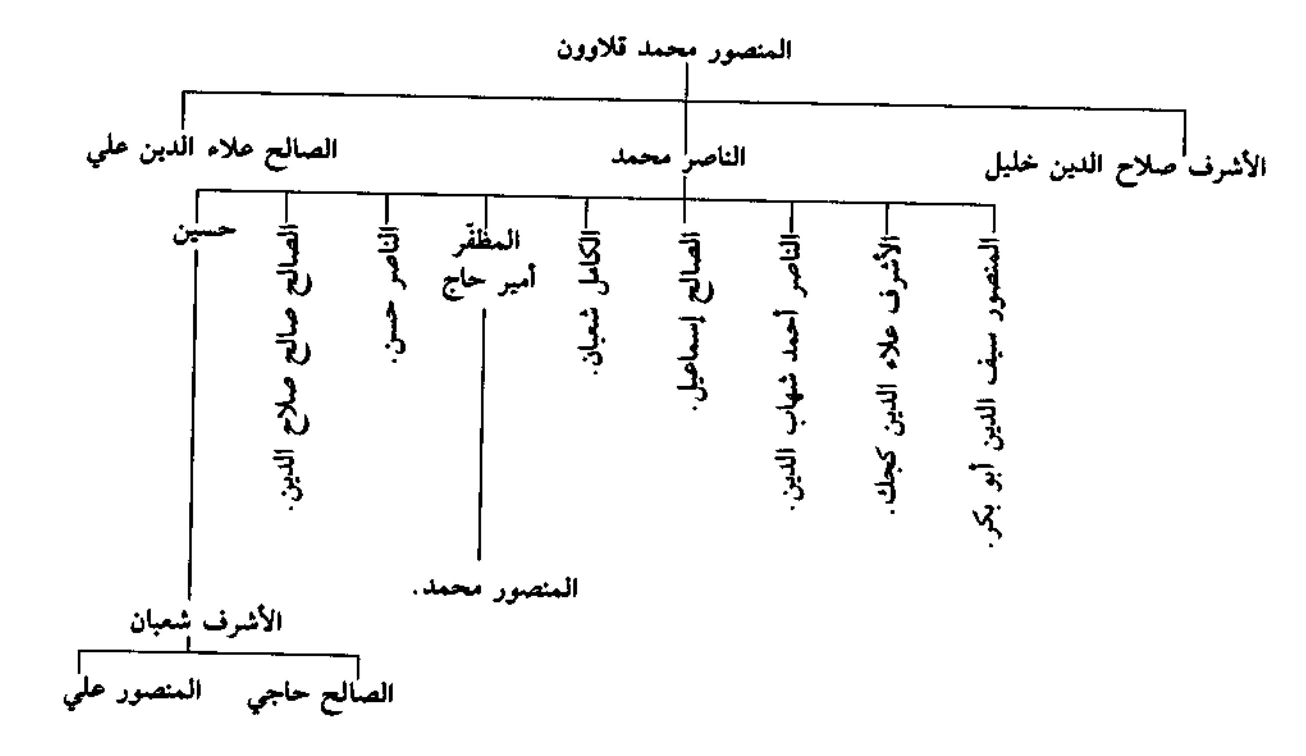
أُلقي القبض على السلطان برقوق في شهر جمادى

الآخرة سنة ٧٩١هـ، وسُجن في الكرك. وأُعيد السلطان الصالح حاجي.

ـ ٢٩ ـ
الصالح حاجي
(٧٩١ ـ ٧٩٢هـ)

بعد أن أُلقي القبض على السلطان برقوق وأُلقي في سجن الكرك سنة ٧٩١هـ أُعيد الصالح حاجي إلى السلطنة فغيّر لقبه من الصالح إلى المنصور، ولكنه لم يمكث في السلطنة سوى ثمانية شهورٍ.

أُخرج الظاهر برقوق من السجن، وأُعيد إلى السلطنة، وخُلع المنصور حاجي في شهر صفر سنة ٧٩٢هـ، وانتهى عهد أسرة قلاوون بل انقضى حكم المماليك البحرية وجاء سلطان المماليك الجراكسة.


المنصور محمد قلاوون
الصالح علاء الدبن علي
الناصر محمد
الأشرف صلاح الدين خليل
حسين
الصالح صالح صلاح الدين.
الناصر حسن.
المظفر
أمير حاج
الكامل شعبان.
الصالح إسماعيل.
الناصر أحمد شهاب الدين.
الأشرف علاء الدين كجك.
المنصور سيف الدين أبو بكر.
المنصور محمد.
الأشرف شعبان
المنصور علي
الصالح حاجي

حكم المماليك البحرية مصر مدة أربعٍ وأربعين ومائة سنة (٦٤٨ ـ ٧٩٢هـ)، وقد تمثّل هذا الحكم في أسرتين فقط، وهما: أسرة الظاهر بيبرس البندقداري وقد دام حكمها مدة عشرين سنةً (٦٥٨ ـ ٦٧٨هـ) وقد حكم هو وولداه، وقد دام حكمه هو ثماني عشرة سنةً، وحكم ابنه الأول السعيد بركة ما يقرب من سنتين ثم خُلع، وحكم ابنه الثاني العادل بدر الدين سلامش عدة أشهرٍ وخُلع بعدها.

وكان الظاهر بيبرس قد حرص على بقاء أسرته في الحكم من بعده، وهيّأ الأسباب لذلك، وكان خوفه من المماليك أنفسهم، وقد برز منهم يومذاك المنصور قلاوون لذا فقد سعى إلى ضمان قلاوون بل فكّر بأن يجعله يقف بجانب أولاده من بعده، وزوّج ابنه وخليفته من بعده السعيد بركة من ابنة قلاوون (غازية) وظنّ بأن هذه المصاهرة ستجعل قلاوون يقف بجانب ابنه السعيد بركة، وعندما حاصر المماليك السعيد بركة اتصل بالمنصور قلاوون وطلب دعمه فنصحه بالتنازل عن السلطنة فامتثل وتنازل. ووافق قلاوون على استلام العادل بدر الدين سلامش أخي السعيد بركة وابن الظاهر بيبرس السلطنة وذلك لأنه صغير ويتمكّن لقلاوون أن

يتصرّف بالأمر، ولم تمضِ عدة أشهرٍ حتى دعا المنصور قلاوون أمراء المماليك وبسط لهم الوضع القائم، وأن الأمر يتطلب رجلاً حكيماً يُدبّر شؤون الدولة، وأن الصغير يعيق الأمر ولا يصلح للوضع فاتفق الجميع على خلع العادل بدر الدين سلامش وسلطنة المنصور قلاوون.

أما الأسرة الثانية فهي أسرة المنصور قلاوون نفسه، وقد استمرّ سلطانها أربع عشرة ومائة سنة (٦٧٨ ـ ٧٩٢هـ)، وحكم هو وأولاده وأحفاده، ولم يتخللها سوى خمس سنواتٍ خرج أمر مصر فيها من أيديهم، إذ تسلّم العادل كتبغا، والمنصور لاجين، والمظفّر بيبرس الجاشنكير السلطنة، وقد قُتل ثلاثتهم، حكم الأوليان منهم مدة أربع سنواتٍ (٦٩٤ ـ ٦٩٨هـ)، وحكم الثالث ما يقرب من سنةٍ.

أما أفراد الأسرة فقد حكم المنصور محمد قلاوون أبو ناصر إحدى عشرة سنةً وتوفي بعدها (٦٧٨ ـ ٦٨٩هـ) ورجع الحكم بعده ضعيفاً إذ حكم ابنه الأشرف صلاح الدين خليل مدة أربع سنواتٍ (٦٨٩ ـ ٦٩٣هـ)، وقُتل بعدها، وجيء بأخيه الناصر محمد، ولم يطل عهده بأكثر من سنةٍ حتى خُلع، وتسلطن العادل

كتبغا مدة سنتين ثم علا السلطة المنصور لاجين عندما كان العادل في زيارةٍ لدمشق لكن المنصور لاجين لم يلبث أن قُتل، وأُعيد إلى السلطنة الناصر محمد بن قلاوون، وبقي عشر سنواتٍ (٦٩٨ ـ ٧٠٨هـ) غير أنه اعتزل فتسلّم السلطنة المظفّر بيبرس الجاشنكير، وشعر الناصر محمد بن قلاوون أنه هُضم حقه فاستعاد السلطنة بالاتفاق مع بعض الأمراء، واستمر سلطانه حتى توفي، وقد أحبه الناس لذا فقد حكم أبناؤه من بعده رغم ضعفهم وصغر سنّهم، إذ تسلّم السلطنة ثمانية من أبنائه، كان الأول منهم المنصور سيف الدين أبو بكر وخُلع قبل مرور سنةٍ على حكمه، وكان أمر الثاني الأشرف علاء الدين كجك كالأول لم يصل عهده إلى سنةٍ، ويشبههما الثالث الناصر أحمد، أما الرابع فهو الصالح إسماعيل وقد حكم ثلاث سنواتٍ (٧٤٣ ـ ٧٤٦هـ) ومات بعدها، وجاء الخامس كامل شعبان وقُتل قبل أقل من سنةٍ، وكذا السادس المظفّر أمير حاج كان مصيره القتل، ولم تمرّ سنة على سلطنته، وحكم السابع الناصر حسن أربع سنواتٍ (٧٤٨ ـ ٧٥٢هـ) وخُلع بعدها، وخُلع الثامن الصالح صالح بعد ثلاث سنواتٍ من حكمه (٧٥٢ ـ ٧٥٥هـ)، وأُعيد الناصر حسن فاستمرّ سبع سنواتٍ (٧٥٥ ـ ٧٦٢هـ) وقُتل بعدها. وتولّى الأمر

بعدئذٍ المنصور محمد بن السلطان المظفّر أمير حاج وخُلع بعد عامين من حكمه (٧٦٢ ـ ٧٦٤هـ)، وجاء بعده ابن عمه الأشرف شعبان فحكم أربع عشرة سنةً (٧٦٤ ـ ٧٧٨هـ) وقُتل بعدها. وخلفه ابنه المنصور عليّ لمدة خمس سنواتٍ توفي بعدها (٧٧٨ ـ ٧٨٣هـ)، وخلفه أخوه الصالح حاجي فلم يمض عليه سوى سنةٍ حتى خُلع، وتسلّطن الأمير برقوق من المماليك الجراكسة غير أنه أُعيد الصالح حاجي بعد سبع سنواتٍ (٧٨٤ ـ ٧٩١هـ) وحكم مدة سنةٍ واحدةٍ (٧٩١ ـ ٧٩٢هـ) ثم أخرج السلطان برقوق من سجنه، وأعيد إلى سلطانه، وانتهى أمر المماليك البحرية بشكلٍ دائمٍ، وجاء عهد المماليك الجراكسة أو البرجية.

ونلاحظ أن أسرة المنصور قلاوون قد حكم منها خمسة عشر سلطاناً توفي منهم أربعة وفاةً طبيعيةً بينما خُلع سبعة منهم خلعاً، وقُتل خمسة منهم، وأن بعضهم وهو الناصر محمد قد خُلع مرةً، واعتزل مرةً، وعاد فاستمرّ حتى توفي، وأن الناصر حسن قد خُلع وأُعيد ثم قُتل.

وكان أكثرهم يتولّى الأمر وهو صغير لذا يكون ألعوبةً بيد كبار الأمراء فيخلعونه أو يقتلونه، وما بقاء

هذه الأسرة في الحكم هذه المدة الطويلة إلا بسبب ما تمتّع به المنصور قلاوون وابنه الناصر محمد من حبٍّ، وهما من الذين توفوا وفاةً طبيعيةً من بين الأربعة السلاطين الذين توفوا هذه الوفاة، وقد حكم المنصور مدة إحدى عشرة سنةً، وحكم الثاني وهو ابنه أي الناصر محمد مدة ثلاثاً وأربعين سنةً، وبذا يكون قد حكم اثنان من هذه الأسرة خمساً وخمسين سنةً أي ما يقرب من نصف مدة حكم الأسرة كلها أما الآخرون وهم ثلاثة عشر سلطاناً فقد حكموا تسعاً وخمسين سنة أي بمعدل أربع سنوات ونصف لكل سلطانٍ غير أن خمسةً منهم لم يتجاوز أحدهم السنة بل لم يصل إلى السنة ثلاثة منهم خُلعوا خلعاً واثنان قُتلا، وحكم واحد منهم مدة سنتين وخُلع بعد ذلك، وحكم اثنان ثلاث سنواتٍ وخُلع واحد منهم ومات الثاني، وحكم واحد مدة أربع سنواتٍ وقُتل بعدها، وآخر خمس سنواتٍ وتوفي بعدها، وقُتل واحد بعد أربعة عشر عاماً، وهذا كله يدلّ على مدى ضعف هؤلاء السلاطين باستثناء اثنين منهم، وتلاعب المماليك بالسلاطين لصغر سنهم والحسد الذي كان بينهم.

الفصل الثاني

المماليك الجراكسة «البرجيّة»

(٧٩٢ - ٩٢٣هـ)

تسلّمت هذه الجماعة سلطنة مصر مدة ١٣١ سنةً وتوالى عليها ٢٧ سلطاناً يعودون إلى أصولٍ جركسيةٍ، ويُعرفون بالمماليك الجراكسة أو البرجية، وهؤلاء السلاطين هم:

١ ـ الظاهر برقوق	٩ سنوات	٧٩٢ـ ٨٠١هـ.	للمرة الثانية	توفي.
٢ ـ الناصر فرج	٧ سنوات	٨٠١ـ ٨٠٨هـ.		خُلع.
٣ ـ المنصور عبد العزيز	ثلاثة أشهر	٨٠٨ـ ٨٠٨هـ.		خُلع.
٤ ـ الناصر فرج	٧ سنوات	٨٠٨ـ ٨١٥هـ.	للمرة الثانية	قُتل.
الخليفة	خمسة أشهر	٨١٥ـ ٨١٥هـ.		
٥ ـ المؤيد	٩ سنوات	٨١٥ـ ٨٢٤هـ.		توفي.
٦ ـ المظفّر أحمد	عدة أشهر	٨٢٤ـ ٨٢٤هـ.		خُلع.
٧ ـ الظاهر ططر	عدة أشهر	٨٢٤ـ ٨٢٤هـ.		توفي.
٨ ـ الصالح محمد	عدة أشهر	٨٢٤ـ ٨٢٥هـ		خُلع.
٩ ـ الأشرف برسباي	١٦ سنة	٨٢٥ـ ٨٤١هـ.		توفي.

١٠ ـ العزيز يوسف	عدة أشهر	٨٤١ ـ ٨٤٢هـ.	خُلع.
١١ ـ الظاهر جقمق	١٥ سنة	٨٤٢ ـ ٨٥٧هـ	توفي.
١٢ ـ المنصور عثمان	شهر ونصف	٨٥٧ ـ ٨٥٧هـ.	خُلع.
١٣ ـ الأشرف اينال	٧ سنوات	٨٥٧ ـ ٨٦٥هـ.	توفي.
١٤ ـ المؤيد أحمد	أقل من سنة	٨٦٥ ـ ٨٦٥هـ.	خُلع.
١٥ ـ الظاهر خشقدم	٧ سنوات	٨٦٥ ـ ٨٧٢هـ.	توفي.
١٦ ـ الظاهر بلباي	شهرين	٨٧٢ ـ ٨٧٢هـ.	خُلع.
١٧ ـ الظاهر تمربغا	شهرين	٨٧٢ ـ ٨٧٢هـ.	خُلع.
١٨ ـ خير بك	ليلة واحدة	٨٧٢ ـ ٨٧٢هـ.	خُلع.
١٩ ـ الأشرف قايتباي	٢٩ سنة	٨٧٢ ـ ٩٠١هـ.	توفي.
٢٠ ـ الناصر محمد	سنة واحدة	٩٠١ ـ ٩٠٢هـ.	خُلع.
٢١ ـ قانصوه	سنة واحدة	٩٠٢ ـ ٩٠٣هـ.	قُتل.
٢٢ ـ الناصر محمد		٩٠٣ ـ ٩٠٤هـ.	قُتل.
٢٣ ـ الظاهر قانصوه		٩٠٤ ـ ٩٠٥هـ.	خُلع.
٢٤ ـ جانبلاط		٩٠٥ ـ ٩٠٦هـ.	قُتل.
٢٥ ـ العادل طومان باي	عدة أشهر	٩٠٦ ـ ٩٠٦هـ.	قُتل.
٢٦ ـ الأشرف قانصوه الغوري	١٧ سنة	٩٠٦ ـ ٩٢٢هـ.	قُتل.
٢٧ ـ طومان باي	أقل من سنة	٩٢٢ ـ ٩٢٣هـ.	قُتل.

إن موطن الجراكسة هو الجزء الشمالي الغربي من بلاد القفقاس (القفجاق)، ويقولون هم عن أرضهم بلاد الأديغة، إذ أن الأديغة هو الاسم الذي يُطلقونه على أنفسهم. وكانت هذه المنطقة مسرحاً للصراع بين الدولة الإيلخانية المغولية وبين مغول الشمال أو القبيلة الذهبية،

وهذا الصراع جعل أعداداً من أبناء الجراكسة تدخل سوق النخاسة وتنتقل إلى مصر فاشترى المنصور قلاوون أعداداً منهم ليتخلّص من صراع المماليك البحرية، وليضمن الحفاظ على السلطة له ولأبنائه من بعده، وقد أُطلق على هؤلاء المماليك الجدد المماليك الجراكسة نسبةً إلى أصولهم التي ينتمون إليها، كما أُطلق عليهم اسم المماليك البرجية نسبةً إلى القلعة التي وضعوا فيها.

وقد حرص المنصور قلاوون على تربية مماليكه التربية الدينية والعسكرية في وقتٍ واحدٍ أو أن التربية الدينية الإسلامية لا بد من أن يكون من أهدافها التدريب على القتال وحسن استعمال الأسلحة إذ لا يمكن فصل الدين عن أي جانبٍ من جوانب الحياة.

لم يسمح السلطان المنصور قلاوون لهؤلاء المماليك بمغادرة القلعة أبداً، فلما توفي وخلفه ابنه الأشرف خليل سمح لهؤلاء المماليك بالنزول من القلعة أثناء النهار والعودة إليها ليلاً.

وبعد مدةٍ أصبحت أعداد هؤلاء المماليك الجراكسة كثيرةً، وغدوا أصحاب رتبٍ عسكريةٍ ومنهم الأمراء والقادة، واستطاعوا أن يتسلّموا السلطنة وأن يحكموا البلاد.

ولما كان هؤلاء كلهم بمستوىً واحدٍ إذ جميعهم مماليك لذا فقد ساد بينهم جوّ من الحسد كما ساد من سبقهم من المماليك، فكان القتال بينهم والعمل على محاولة استلام السلطة فما أن يصل أحدهم إلى مركز السلطنة حتى يعمل على بناء أسرةٍ حاكمةٍ غير أن آخر يعمل كسابقه فيسعى ليقبض عليه وخاصةً الصغار منهم فيخلعه أو يقتله ويقوم مقامه وليس له من يدافع عنه أو ينتقم له إلا أن يكونوا أصدقاء له أو من يريد أن يقوم بعملٍ كعمله للوصول إلى مأربٍ.

لقد حكم هؤلاء المماليك الجراكسة مصر والشام والحجاز مدةً تزيد على إحدى وثلاثين ومائة سنةٍ (٧٩٢ ـ ٩٢٣هـ) وتعاقب في هذه المدة أكثر من سبعةٍ وعشرين سلطاناً، ولم تزد مدة حكم أحدهم على خمس عشرة سنةً إلا لأربعةٍ منهم، وهم: الأشرف قايتباي وقد حكم ٢٩ سنةً (٨٧٢ ـ ٩٠١هـ)، والأشرف قانصوه الغوري وقد حكم ١٧ سنة (٩٠٦ ـ ٩٢٢هـ)، والأشرف برسباي وقد حكم ١٦ سنة (٨٢٥ ـ ٨٤١هـ)، والظاهر جقمق وحكم ١٥ سنةً (٨٤٢ ـ ٨٥٧هـ). وهناك ستة سلاطين حكموا عدة سنواتٍ أو أكثر من سنةٍ، وهم: الظاهر برقوق وحكم تسع سنواتٍ (٧٩٢ ـ ٨٠١هـ) وهي المرة

الثانية بعد انتهاء عهد المماليك البحرية أما المرة الأولى فتعدّ ضمن حكم المرحلة السابقة في عهد المماليك البحرية، وابنه الناصر فرج، وقد حكم مرتين في كل مرةٍ سبع سنواتٍ (٨٠١ ـ ٨٠٨هـ) و(٨٠٨ ـ ٨١٥هـ)، والمؤيد وحكم تسع سنواتٍ (٨١٥ ـ ٨٢٤هـ)، والأشرف أينال وحكم سبع سنواتٍ (٨٥٧ ـ ٨٦٥هـ)، والظاهر خشقدم وحكم سبع سنواتٍ (٨٦٥ ـ ٨٧٢هـ).

أما السلاطين الباقون وهم خمسة عشر سلطاناً فكانت مدة حكم الواحد منهم أقلّ من سنةٍ بل إن بعضهم لم تزد مدة حكمه على الليلة الواحدة إذ أن خير بك قد تسلّم السلطنة مساءً وخُلع في اليوم التالي صباحاً وذلك سنة ٨٧٢هـ، وأن الناصر محمد بن الأشرف قايتباي قد تسلم السلطنة مرتين وفي كل مرةٍ لم يدم حكمه السنة (٩٠١ ـ ٩٠٢هـ) و(٩٠٣ ـ ٩٠٤هـ) وقُتل بعدها. هذا بالإضافة إلى أن الخليفة المستعين (٨٠٨ ـ ٨١٥هـ) قد تسلّم السلطنة خمسة أشهرٍ سنة ٨١٥هـ.

ويلاحظ أن السلطان قد يتسلّم الأمر مدةً، ويعهد لابنه من بعده وغالباً ما يكون صغيراً فيكون عليه وصيّاً أو نائباً عنه أو مدبّراً لأمور المملكة وهو من المماليك أيضاً ثم لا يلبث أن يقوم بالاستبداد بالسلطنة وخلع

السلطان المعهود إليه بالأمر أو قتله، لذا لم تكن هناك أسر تولّت أمر السلطنة، ولا يستثنى من هذا سوى الظاهر برقوق الذي حكم ولده المنصور فرج مدة سبع سنواتٍ ثم خُلع وأعطيت السلطنة لولده الثاني المنصور عبد العزيز مدة ثلاثة أشهرٍ فقط ثم أُعيد المنصور فرج فحكم سبع سنواتٍ أخرى، وبذا يكون قد تولّى ولدان من أبناء السلطان برقوق الأمر وهذا لم يتمّ لغيره من سلاطين المماليك الجراكسة هذا بالإضافة إلى أن هذه المدة قد قاربت الخمس عشرة سنةً، وهذا أيضاً لم يتمّ لغيره، وقد تكررت هذه الظاهرة سبع مراتٍ (يحكم السلطان ويرثه ابنه لمدةٍ قصيرة لا تصل غالباً إلى السنة) فبالإضافة إلى الظاهر برقوق حدثت مع المؤيد، والظاهر ططر، والأشرف برسباي، والظاهر جقمق، والأشرف أينال، والأشرف قايتباي، وإذا كان الناصر محمد بن الأشرف قايتباي قد حكم مرتين إلا أنه في كل مرةٍ لم تطل مدته إلى السنة. إذن كانت تتوالى مدة حكمٍ طويلةٍ لسلطانٍ جديدٍ وتزيد على خمس سنواتٍ وتنتهي بالوفاة الطبيعية، ويعقبها مدة قصيرة لولده وتقلّ عادةً عن السنة يعقبها الخلع أو القتل.

ويلاحظ في السلاطين الخمسة الأواخر أن نتيجة

القتل هي السائدة فقد خُلع الظاهر قانصوه بعد سنةٍ من تسلّمه أمر السلطنة رغم أنه جديد، وقُتل جانبلاط قبل مرور سنةٍ من تسلّمه الأمر رغم أنه جديد أيضاً، وخُنق العادل طومان باي بعد عدة أشهرٍ من تسلّمه السلطنة، ولما عرض أمر السلطنة على الأشرف قانصوه الغوري رفضه وبكى خوفاً من القتل رغم أن سنّه كانت تزيد على الستين، ولم يتسلّم الأمر إلا بشرط ألا يقتلوه، ولكنه قُتل في الحرب على أيدي العثمانيين في معركة مرج دابق شمال غربي مدينة حلب، كما قُتل خلفه طومان باي في معركة الريدانية قرب القاهرة سنة ٩٢٣هـ في لقاءٍ مع العثمانيين أيضاً.

- ١ -
السلطان برقوق
(٧٩٢ ـ ٨٠١هـ)

هو برقوق بن أنس، أبو سعيد، سيف الدين، الملك الظاهر، ولد سنة ٧٣٨هـ، جلبه إلى مصر أحد تجار الرقيق اسمه عثمان فباعه فنُسب إليه، فيقال العثماني.

أُعتق فذهب إلى الشام فخدم نائب السلطنة. وعاد إلى مصر، فكان أميراً لعشرة مماليك وتقدّم في سلطنة المنصور علي بن شعبان (٧٧٨ ـ ٧٨٣هـ) فولي إمارة العساكر، وانتزع السلطنة من الصالح حاجي أخي المنصور علي بن شعبان وذلك سنة ٧٨٤هـ، واستمرّ سلطاناً حتى سنة ٧٩١هـ وتلقّب بالملك الظاهر، وقام بأعمالٍ عمرانيةٍ ومنها المدرسة البرقوقية بين القصرين.

خُلع الظاهر برقوق سنة ٧٩١هـ، وأُعيد الصالح حاجي سلطاناً، وسُجن الظاهر برقوق بالكرك فخرج فيها وامتلكها، وزحف على دمشق فدخلها، فزحف عليه الصالح حاجي بجيشٍ من مصر فانتصر الظاهر برقوق، وعاد إلى مصر سلطاناً سنة ٧٩٢هـ.

دخل تيمورلنك بغداد سنة ٧٩٥هـ، وهدّد المنطقة

فتشكّل حلف من سلطان المماليك الظاهر برقوق، وأمير سيواس وسط الأناضول، ومغول الشمال، والعثمانيين ضدّ تيمورلنك.

خرج الظاهر برقوق على رأس حملةٍ سنة ٧٩٧هـ باتجاه بغداد، ومعه أحمد بن أويس صاحب بغداد الذي فرّ منها عند دخول تيمورلنك إليها والتجأ إلى القاهرة فسار برقوق لإعادته إلى عاصمة ملكه، إلا أنه لم يحدث قتال لأن تيمورلنك كان قد ترك بغداد وعاد إلى الشرق فما كان من الظاهر برقوق إلا أن رجع هو الآخر إلى مصر.

توفي الظاهر برقوق بالقاهرة في شهر شوال سنة ٨٠١هـ وقام من بعده ابنه فرج.

كان السلطان برقوق حازماً فيه دهاء ومضاء، أبطل بعض المكوس، وحمدت سيرته إلا أنه كان ذا طمعٍ شديدٍ لجمع المال، ولا يُقدّم عليه شيئاً.

قيل: اشتهر ببرقوق لجحوظ عينيه.

من آثاره جسر الشريعة بالغور، وقناة العروب بالقدس.

ـ ٢ ـ
الناصر فرج بن برقوق
(٨٠١ ـ ٨٠٨هـ)

فرج (الملك الناصر)، أبو السعادات، زين الدين بن السلطان الظاهر برقوق، وُلد سنة ٧٩١هـ، وبويع بالقاهرة سلطاناً بعد وفاة أبيه سنة ٨٠١هـ، وعمره لا يتجاوز العشر سنواتٍ، فقام بتدبير أمور السلطنة «ايتمش» مدةً قصيرةً، وامتنع نائب دمشق عن الطاعة، وانضمّ إليه نواب حلب وحماة وطرابلس وصفد وغزة، فخرج الناصر فرج بالجيوش لقتالهم فتلقّوه بالرملة فهزمهم ودخل دمشق سنة ٨٠٢هـ، فأعلن الأمان، وهدأت الأمور، فعاد إلى مصر، وما لبث أن تتابعت عليه الأخبار بزحف تيمورلنك على الشام سنة ٨٠٣هـ فسار بجيشٍ كبيرٍ إلى دمشق ورابط هناك، وناوش طلائع تيمورلنك، ثم أظهر أنه مضطر للعودة إلى مصر، فألقى الحبل على الغارب، وترك دمشق وغيرها فريسةً لتيمورلنك وعساكره نهباً وحرقاً وتعذيباً ومحواً، فدخل تيمورلنك دمشق وسحق الجيش المملوكي. واكتفى الناصر فرج بأن تبادل الهدايا وبعض الأسرى مع تيمورلنك.

اتجه تيمورلنك نحو العثمانيين سنة ٨٠٥هـ، وانتصر عليهم، وأسر السلطان بايزيد، وبعد أن سمع الناصر فرج بأنباء هذه المعارك الطاحنة رضخ لشروط تيمورلنك، فضرب النقود باسم تيمورلنك، وإن كان على ما يبدو قد فرح بنفسه على ما تمّ إذ زال الخوف المتوقّع من العثمانيين.

وفي الوقت الذي كانت فيه أنظار المماليك تتجه نحو الشرق بسبب هجوم تيمورلنك فأغار ملك قبرص على الإسكندرية سنة ٨٠٦هـ، ثم شنّ غارةً على طرابلس في السنة التالية.

بدأ الأمراء يخالفون الناصر فرج فاضطربت أحواله وضاق صدره فخرج متنكراً واختفى وذلك سنة ٨٠٨هـ.

ـ ٣ ـ

المنصور بن برقوق
(٨٠٨ ـ ٨٠٨هـ)

المنصور بن برقوق هو عبد العزيز بن الظاهر برقوق، ويُلقّب الملك المنصور، ويُكنى أبا العزّ. ولد سنة ٧٩٨هـ بالقاهرة.

لما اختفى الناصر فرج اجتمع أمراء المماليك وأخرجوا أخاه عبد العزيز وبايعوه سلطاناً وهو صغير أيضاً لا يزيد عمره على العاشرة، وقام بأمره وأمر السلطنة بيبرس الأتابكي.

ظهر الناصر فرج بعد شهرين من اختفائه فقاتل من كان مع أخيه عبد العزيز، وقاتل أخاه أيضاً، وعاد إلى السلطنة.

أُرسل المنصور عبد العزيز بن برقوق إلى الإسكندرية فسُجن بها أربعين يوماً، ومات مسموماً أو مخنوقاً.

ـ ٤ ـ

الناصر فرج «للمرة الثانية»
(٨٠٨ ـ ٨١٥هـ)

بعد أن عاد الناصر فرج إلى السلطنة وقضى على معارضيه انتظمت له الأمور، غير أنه أفرط في قتل مماليك أبيه فخرج بعضهم إلى غزة والشام، والتفّ حولهم كثيرون من منطقة نابلس وغيرها، واستفحل أمرهم فقصدهم الناصر فرج وقاتلهم في اللجون شمال غربي مدينة جنين فانهزم فسار إلى دمشق ودخلها فنادوا بخلعه، فأرسل إليهم يطلب الأمان، فقيّدوه وسجنوه في قلعة دمشق، ثم قتلوه بالقلعة سنة ٨١٥هـ.

ـ ٥ ـ
المؤيّد
(٨١٥ ـ ٨٢٤هـ)

لما قُتل الناصر فرج بن الظاهر برقوق سنة ٨١٥هـ أُضيفت السلطنة إلى الخليفة بعد إصرار الأمراء على ذلك، وفوّض الخليفة إلى شيخ بن عبد الله تدبير شؤون المملكة ولقبه «نظام الملك»، ثم سأل شيخ بن عبد الله الخليفة أن يُفوّض إليه السلطنة فلم يقبل وذلك لأن شيخ بن عبد الله رفض شرط الخليفة وهو عدم السكن بالقلعة فأخذ شيخ بن عبد الله السلطنة بالقوة، وتلقّب باسم «المؤيّد»، وأعلن خلع الخليفة المستعين بالله، وبايع أخاه داود بن المتوكل على الله (المعتضد بالله).

ولما بلغ نائب الشام «نوروز» خلع الخليفة جمع القضاة والعلماء وسألهم بما جرى فأجابوا بأن هذا الخلع لا يصحّ، وهذا ما جعل نائب الشام يخلع الطاعة، وأجمع على قتال السلطان المؤيّد الذي انتزع السلطنة بالقوة وخلع الخليفة دون ضرورةٍ شرعيةٍ.

حشد السلطان المؤيد جيشاً وسار إلى الشام لقتال نائبها وذلك سنة ٨١٧هـ، وتمكّن من إحراز النصر، وبعد أن حقّق هدف الحملة تابع السلطان المؤيد

بعسكره إلى أطراف الشام الشمالية لإعادة تبعية الإمارات التركمانية إلى الدولة المملوكية، وهذه الإمارات هي: قرمان، ذو القادر، رمضان، وكانت قد أعلنت انفصالها أو عدم ارتباطها بالقاهرة وذلك أثناء حركة نائب الشام «نوروز»، واستطاع المؤيد أن يُعيدها إلى التبعية.

عادت تلك الإمارات إلى نقض العهد فسار إليها السلطان المؤيد ثانيةً سنة ٨٢١هـ، وكانت وجهته طرسوس فأسرع أمراء تلك الدويلات وقدّموا الطاعة، وعندما رجع عادوا إلى نقض العهد، فسار إليهم للمرة الثالثة سنة ٨٢٢هـ ابنه إبراهيم فاستطاع أن يستولي على قونية، وقيصرية، وولّى على تلك الدويلات أمراء من قبله، وضمّ طرسوس، وأضنة إلى دولة المماليك.

توفي السلطان المؤيّد سنة ٨٢٤هـ في شهر المحرم.

ـ ٦ ـ

المظفّر احمد

(٨٢٤ ـ ٨٢٤هـ)

المظفّر أحمد بن السلطان المؤيد، تولّى السلطنة بعد أبيه وبعهدٍ منه في شهر المحرم سنة ٨٢٤هـ، ولُقّب بالمظفّر، وأُعطي الأمير ططر تدبير شؤون الدولة، وفي شهر شعبان سنة ٨٢٤هـ أي بعد مرور سبعة أشهرٍ قبض الأمير ططر على السلطان المظفّر وخلعه، وتسلّم هو مقاليد السلطة.

ـ ٧ ـ

الظاهر ططر

(٨٢٤ ـ ٨٢٤هـ)

ططر، الملك الظاهر، سيف الدولة، أبو سعيد، من مماليك الظاهر برقوق، ولد سنة ٧٦٩هـ، اشتراه بمصر، أعتقه واستخدمه، وفي أيام السلطان الناصر فرج توجّه ططر إلى حلب ولحق بأهل الشغب والعصيان. ثم جعله السلطان «شيخ بن عبد الله» (٨١٥ ـ ٨٢٤هـ) مقدّم ألفٍ، فأمير مجلسٍ، ومات السلطان المؤيّد سنة ٨٢٤هـ، وتولّى السلطنة بعده ابنه الملك المظفّر أحمد فتولّى ططر إدارة المملكة، وتزوّج أم المظفّر، ثم خلع المظفر، وطلّق أمه بدمشق، ونادى بنفسه سلطاناً، فقلّده الخليفة السلطنة، وتلقّب بالظاهر سنة ٨٢٤هـ، وعاد إلى مصر مريضاً، ولم يلبث أن مات، وعمره خمس وخمسون سنةً.

ويقال: إن أم المظفّر دسّت له سمّاً بطيئاً بعد أن خلع ابنها، وكانت مدة سلطنته بالشام ومصر ثلاثة أشهرٍ وعدة أيامٍ. وكانت وفاته في شهر ذي الحجة سنة ٨٢٤هـ.

كان كريماً مع إتلافٍ شديدٍ للمال.

أخرج الظاهر ططر الخليفة (المستعين بالله) من السجن بالإسكندرية، وسمح له بالعودة إلى القاهرة، ولكن المستعين فضّل الإقامة بالإسكندرية، وبدأ يعمل بالتجارة حتى توفي سنة ٨٣٣هـ.

ـ ٨ ـ

الصالح محمد

(٨٢٤ ـ ٨٢٥هـ)

بعد وفاة الظاهر ططر سنة ٨٢٤هـ قلّد الخليفة أمر السلطنة إلى محمد بن ططر، وقد اتخذ لنفسه لقب «الصالح»، وجعل أمور المملكة للأمير برسباي.

وفي شهر ربيع الثاني سنة ٨٢٥هـ أي بعد أربعة أشهرٍ من استلام الصالح محمد السلطنة خلع الأمير برسباي من السلطنة الصالح محمد بن ططر، وتسلّم شؤونها، وقلّده الخليفة المعتضد بالله أمرها.

- ٩ -
الأشرف برسباي
(٨٢٥ ـ ٨٤١هـ)

برسباي جركسي الأصل ولد سنة ٧٦٦هـ كان من مماليك الأمير دقماق المحمدي، وأهداه إلى الظاهر برقوق فأعتقه واستخدمه في الجيش فتقدّم إلى أن ولي نيابة طرابلس الشام أيام السلطان المؤيد (شيخ بن عبد الله)، ثم اعتقل في قلعة «المرقب» مدةً طويلةً وأُطلق، ثم اعتقل في قلعة دمشق فأخرجه الظاهر ططر، وجعله من كبار رجاله بمصر. وتوفي السلطان الظاهر ططر، وخلفه في السلطنة ابنه الصالح محمد فتولى برسباي تدبير الملك له عدة أسابيع، ثم خلع الصالح محمد ونادى بنفسه سلطاناً، وتلقّب بالملك الأشرف سنة ٨٢٥هـ فأطاعه الأمراء وهدأت البلاد في أيامه.

أرسل الأشرف برسباي حملةً استطلاعيةً إلى جزيرة قبرص، فاتجهت الحملة إلى ميناء ليماسول وذلك سنة ٨٢٧هـ كردّ فعل على الحملات التي قام بها ملوك تلك الجزيرة على الإسكندرية ودمياط أثناء اشتداد حملات تيمورلنك على بلاد الشام. فلما تصدّعت دولة تيمورلنك بعد وفاته قام السلطان الأشرف برسباي بهذا الردّ.

أرسل الأشرف برسباي في السنة التالية ٨٢٨هـ حملةً ثانيةً وكانت جهتها في هذه المرة إلى مدينة «فاماغوستا»، وقد أحرزت النصر، ومكثت أربعة أيامٍ ثم اتجهت إلى مدينة ليماسول، وتمكّنت من فتحها بعد جهدٍ ثم رجعت الحملة إلى مصر.

وبعد سنةٍ خرجت حملة جديدة فسارت نحو مدينة ليماسول ففتحتها، ثم اتجهت نحو الداخل فالتقت بجيشٍ كبيرٍ يقوده ملك قبرص «جانوس» بنفسه فجرت معركة طاحنة بين الفريقين انتصر فيها المسلمون انتصاراً كبيراً، وأسروا ملك قبرص وحملوه معهم، وساروا نحو نيقوسيا، ثم رجعوا إلى مصر، وملك قبرص الأسير معهم. وفي القاهرة فدى الملك نفسه ووافق على أن تكون قبرص تابعةً لدولة المماليك، وبقيت بعدها كذلك مدة بقاء الدولة المملوكية. وبذا انتهى الأثر الصليبي من المنطقة نهائياً، وكان قد بقي في قبرص بعد زواله من بلاد الشام.

كان تيمورلنك قد توفي سنة ٨٠٨هـ فتصدعت امبراطوريته الواسعة التي أسّسها، وقام بعده ابنه «شاه رخ»، واستطاع أن يستعيد مدينة سمرقند، ورغب أن يُحسّن علاقته مع دولة المماليك فأرسل إلى السلطان

برسباي سنة ٨٣٢هـ وفداً يطلب منه السماح له بكسوة الكعبة، وإرسال بعض الكتب إليه، ومنها كتب ابن حجر العسقلاني. ولم يُعط السلطان برسباي جواباً، فأعاد «شاه رخ» الطلب في السنة نفسها، ولم يحظَ بجوابٍ. وفي سنة ٨٣٩هـ طلب «شاه رخ» السماح له بزيارة القدس، وجدّد الطلب في السنة التالية (٨٤٠هـ) ولم يتلقّ في الطلبين أيّ ردّ فاتجه عندها لتشكيل حلفٍ ضد المماليك من العثمانيين وأمراء التركمان.

وبالنسبة إلى إمارات التركمان على أطراف بلاد الشام فقد أرسل الأشرف برسباي حملةً إلى إمارة «الشاة البيضاء» سنة ٨٣٣هـ استطاعت تهديم مدينة الرها، وبدأ بعدها النفوذ العثماني يقوى في تلك الإمارات.

أما بالنسبة إلى جزيرة رودوس القريبة من السواحل التركية فكانت قد غدت منذ سنة ٧١٠هـ قاعدةً لفرسان الاسبتارية الصليبيين، إذ عندما انسحب الصليبيون من بلاد الشام أو طُردوا سنة ٦٩٠هـ انتقل هؤلاء الفرسان إلى جزيرة قبرص، وقد لعبوا دوراً مهماً في الحروب الصليبية، ثم انتقلوا إلى جزيرة رودوس واتخذوها قاعدةً لهم، وعندما غزا السلطان برسباي جزيرة قبرص، وأخضعها لنفوذ المماليك خشي

الاسبتاريون من ذلك فأسرع «فلوفيان» أمير الاسبتاريين وأرسل الهدايا للسلطان برسباي الذي كان عنده العزم لغزو جزيرة رودوس، ولكن عهده لم يطل. وكان عهد برسباي عهد استقرارٍ، وقوةٍ، وغزوٍ ولكن الحالة الاقتصادية كانت متأخرةً.

توفي السلطان برسباي في شهر ذي الحجة سنة ٨٤١هـ فقلّد الخليفة السلطنة إلى يوسف بن برسباي.

كان الأشرف برسباي سلطاناً جليلاً مبجلاً منقاداً للشريعة، يحب أهل العلم، مهيباً مع لين جانبٍ، كفئاً للملك إلا أنه كان عنده طمع زائد في تحصيل الأموال، وكان من خيار ملوك الجراكسة.

منقوش على أحد الألواح الرخامية داخل الكعبة: بسم الله الرحمن الرحيم. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. تقرّب إلى الله تعالى السلطان الملك الأشرف أبو النصر برسباي خادم الحرمين الشريفين بلّغه الله آماله وزيّن بالصالحات أعماله تاريخ سنة ٨٢٦هـ.

- ١٠ -
العزيز يوسف
(٨٤١ ـ ٨٤٢هـ)

يوسف (العزيز) بن برسباي (الأشرف) الدقماقي الظاهري، أبو المحاسن، جمال الدين، وُلد بالقاهرة سنة ٨٢٧هـ.

بعد وفاة الأشرف برسباي في شهر ذي الحجة سنة ٨٤١هـ قلّد الخليفة المعتضد بالله السلطنة إلى يوسف بن برسباي بعهدٍ من أبيه، وكان عمره أربع عشرة سنةً، وجعل شؤون المملكة إلى الأمير جقمق العلائي. ولُقّب يوسف بالملك العزيز.

بعد ثلاثة أشهرٍ وخمسة أيامٍ من حكم السلطان يوسف خلع مماليك الأمير جقمق الملك العزيز يوسف ونادوا بـ(جقمق) ملكاً، فدخل العزيز دور الحريم ثم خرج متخفياً يريد استنفار مماليكه ومماليك أبيه، فقُبض عليه، وأُرسل إلى برج الإسكندرية معتقلاً، فأقام إلى أن كانت أيام الظاهر خشقدم (٨٦٥ ـ ٨٧٢هـ) فأُفرج عنه وسمح له بالسكنى في الإسكندرية حيث شاء على ألا يخرج منها، فسكنها إلى أن توفي سنة ٦٨٨هـ. فمات وعمره إحدى وأربعون سنةً.

- ١١ -

الظاهر جقمق

(٨٤٢ ـ ٨٥٧هـ)

جقمق العلائي الظاهري، سيف الدين، أبو سعيد: اشتراه العلائي (علي بن أينال اليوسفي) وقدّمه إلى الملك الظاهر برقوق، فأعتقه واستخدمه، وحُبس في أيام الملك الناصر فرج، ثم أُطلق وولي أعمالاً في أيام الملك المؤيد شيخ، وأيام الملك الظاهر ططر إلى أن كان أمير العساكر في أيام الأشرف برسباي. ولما توفي الأشرف برسباي وولي ابنه العزيز يوسف السلطنة استمرّ جقمق أميراً للعساكر ومُدبّراً لشؤون الدولة.

قام بعض مماليك الأمير جقمق فخلعوا الملك العزيز يوسف، وولّوا الظاهر جقمق السلطنة.

جاءت رسل أمير التتار «شاه رخ» بن تيمورلنك لتهنئة جقمق فاستقبل الرسل وأحسن وفادتهم.

وأغارت أربع سفن لقراصنة النصارى على مدينة رشيد على الساحل المصري فاتجهت الشبهة إلى أمراء الاسبتاريين في جزيرة رودوس فجهّز الظاهر جقمق حملةً سنة ٨٤٤هـ، وغزا جزيرة رودوس، وخاصةً أن السلطان العثماني مراد الثاني قد حرّض السلطان جقمق

على هذا الغزو، وأسرع الأمراء الاسبتاريون إلى أوروبا يطلبون النجدات الصليبية منها.

سمح الظاهر جقمق لملك التتار «شاه رخ» بن تيمورلنك بكسوة الكعبة سنة ٨٤٧هـ، ثم عاد فنزعها لأن المسلمين وخاصةً العامة منهم لم يقبلوا ذلك، وكذلك بعض المماليك لما في تاريخ التتار من سوءٍ وقتالٍ للمسلمين وتهديمٍ لديارهم وهتك أعراضهم، ولم يُنس بعد ذلك التاريخ.

وغزا الظاهر جقمق جزيرة رودوس في سنة ٨٤٧هـ، وفي سنة ٨٤٨هـ، ولكن لم يُوفّق في فتحها وذلك بسبب الدعم الصليبي لهذه الجزيرة بعد استنجاد أمرائها بالبابا وملوك أوروبا.

ثار على الظاهر جقمق في مصر الأمير قرقماس الشعباني، ونائب الشام، وقام العبيد بفتنةٍ في منطقة الجيزة غير أنه تمكّن من القضاء على هذه الحركات جميعها.

عاش الظاهر جقمق نيفاً وثمانين سنةً، وخُلع بولده المنصور عثمان سنة ٨٥٧هـ برغبةٍ منه إليه لشدة مرضه، ومات أبوه بعد خلعه باثني عشر يوماً.

كان الظاهر جقمق ملكاً عظيماً جليلاً متواضعاً

كريماً، هدأت البلاد في أيامه من الفتن. وكان فصيحاً بالعربية، متفقهاً، له مسائل في الفقه صعبة يُرجع إليه فيها، وكانت فيه حِدّة، وآذى بعض العلماء. وكان أحياناً يخلط الصالح بالطالح والعدل بالظلم.

وكان الظاهر جقمق تقياً ورعاً منع المعاصي وشرب الخمور.

ـ ١٢ ـ

المنصور عثمان
(٨٥٧ ـ ٨٥٧هـ)

عثمان (المنصور) بن جقمق (الظاهر) العلائي الظاهري، أبو السعادات، فخر الدين. بويع بالقاهرة قبيل وفاة أبيه سنة ٨٥٧هـ، ومات أبوه بعد اثني عشر يوماً من سلطنته. وكان عمره تسع عشرة سنةً إذ كان قد وُلد سنة ٨٣٨هـ.

لم يلبث أن اضطرب أمر السلطان المنصور عثمان، وعصاه أمراء الجند، فقاتلهم، وحاصروه في القلعة وقبض عليه زعيمهم الأمير أينال العلائي، وكان مدبّر شؤون الدولة، وتسلّم مكانه، وأرسله إلى السجن في مدينة الإسكندرية، فكانت مدة سلطنته ثلاثةً وأربعين يوماً، وظلّ سجيناً بالإسكندرية إلى أيام الظاهر خشقدم فأطلقه وألزمه بالإقامة بالإسكندرية، فأقام إلى أيام الأشرف قايتباي فنقله إلى دمياط، ثم أذن له بالحج، فحجّ وعاد إلى القاهرة، ثم إلى دمياط وتوفي بها سنة ٨٩٢هـ فنُقل إلى تربة أبيه بالقاهرة. كان فاضلاً، له اشتغال بفقه أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ، مفتياً.

- ١٣ -
الأشرف اينال
(٨٥٧ ـ ٨٦٥هـ)

أينال (الملك الأشرف) أبو النصر، سيف الدين، العلائي الظاهري، ولد سنة ٧٨٤هـ، اشتراه الظاهر برقوق من الخوجة علاء الدين عليّ، ثم أعتقه السلطان فرج بن برقوق، وتقدّم في العسكرية إلى أن كان نائب مدينة الرها سنة ٨٣٦هـ فحاكم مدينة صفد بالنيابة عن السلطان، ثم قائداً عاماً للجيش سنة ٨٤٩هـ في أيام السلطان الظاهر جقمق.

توفي السلطان جقمق، وخلفه ابنه المنصور عثمان سنة ٨٥٧هـ فخلعه أمراء الجيش ونادوا بسلطنة أينال سنة ٨٥٧هـ فما كان من الخليفة القائم بأمر الله إلا أن قلّد الأمير أينال أمر السلطنة في شهر ربيع الأول سنة ٨٥٧هـ، وأخذ لقب الأشرف.

قام السلطان الأشرف أينال بأعباء الملك بحكمةٍ وعقلٍ، فاستمرّ إلى أن مرض وشعر بدنو الأجل فخلع نفسه من السلطنة، وأمر بتولية ولده أحمد، فولّي، وتوفي الأشرف بعد ذلك بيومٍ واحدٍ في القاهرة سنة ٨٦٥هـ.

كان السلطان الأشرف أينال قد اختلف مع الخليفة القائم بأمر الله فقبض السلطان على الخليفة في شهر جمادى الأولى وسجنه في الإسكندرية، وبقي فيها حتى مات سنة ٨٦٣هـ، ودُفن هناك، ثم بايع السلطان أخا الخليفة الآخر وهو المستنجد بالله.

كانت الاضطرابات قد استمرّت على الأشرف أينال طيلة حكمه.

كان الأشرف أينال أُميّاً، يخطّون له على المراسم فيجري عليها قلمه.

- ١٤ -
المؤيّد أحمد
(٨٦٥ ـ ٨٦٥هـ)

أحمد (المؤيّد) بن أينال (الأشرف) العلائي الظاهري، أبو الفتح، شهاب الدين، تسلّم السلطنة بالقاهرة من أبيه لما شعر الأب بدنو أجله، ولبس شعار السلطنة وهو (العمامة السوداء، والجبّة السوداء بالطراز المذهّب، والسيف). ولما مات أينال قلّد الخليفة المستنجد بالله أحمد بن أينال السلطنة، وتلقّب بالمؤيد.

كان المؤيد أحمد محبباً للناس، قليل الأذى، كفئاً للسلطنة. ولكن لم تمض على سلطنته سوى أربعة أشهرٍ وثلاثة أيامٍ حتى وثب عليه الأمير خشقدم وخلعه وأرسله إلى سجن الإسكندرية، فأقام به مدةً، ثم أُطلق وأسكن الإسكندرية مرعيّ الكرامة إلى أن توفي سنة ٨٩٣هـ، ونُقلت جثته إلى القاهرة.

- ١٥ -

الظاهر خشقدم
(٨٦٥ - ٨٧٢هـ)

خشقدم بن عبد الله الناصريّ المؤيديّ، وُلد سنة ٧٩٥هـ، أبو سعيد، سيف الدين، السلطان الظاهر، كان مملوكاً للخوجه ناصر الدين - وإليه نسبته، واشتراه منه السلطان المؤيد «شيخ بن عبد الله» (٨١٥ - ٨٢٤هـ)، وأعتقه واستخدمه، ثم عيّنه السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢ - ٨٥٧هـ) مقدّم ألف في دمشق سنة ٨٥٠هـ، وعاد إلى مصر فعيّنه الأشرف أينال (٨٥٧ - ٨٦٥هـ) أمير سلاح، ثم ولّاه المؤيد أحمد (٨٦٥ - ٨٦٥هـ) أمير العساكر، وهي أعلى الرتب في الدولة.

ثار المماليك على المؤيّد أحمد فخلعوه، ونادوا بسلطنة خشقدم، فتلقّب بالملك الظاهر، وسجن بعض أمراء الجيش، وقتل آخرين، فقامت فتنة أتباعهم فقمعها وصفا له الجو.

كان داهيةً، مهيباً، كفئاً للسلطنة، فصيحاً بالعربية، قليل الأذى بالنسبة إلى غيره ممن جاء بعده، وهدأت البلاد في أيامه.

استمرّ السلطان الظاهر خشقدم في السلطنة مدة سبع سنوات، وتوفي في شهر ربيع الأول سنة ٨٧٢هـ بالقاهرة.

ـ ١٦ ـ
الظاهر بلباي
(٨٧٢ ـ ٨٧٢هـ)

بعد وفاة الظاهر خشقدم سنة ٨٧٢هـ قلّد الخليفة المستنجد بالله الأمير «بلباي» سلطاناً، فأخذ لقب سلفه (الظاهر سيف الدين)، ولكن لم يلبث سوى شهرين حتى وثب عليه المماليك وخلعوه.

- ١٧ -

الظاهر تمربغا
(٨٧٢ ـ ٨٧٢هـ)

تمربغا الظاهري، أبو سعيد، وُلد سنة ٨١٥هـ، اشتراه الظاهر جقمق بمصر صغيراً سنة ٨٢٧هـ فكان عمره لا يزيد على اثنتي عشر سنةً، وربّاه، فارتقى إلى أن سار أميراً للحجّ سنة ٨٤٩هـ، وعيّن مقدّم ألفٍ في سلطنة عثمان بن جقمق (٨٥٧ ـ ٨٥٧هـ). ثم نُفي إلى الإسكندرية، وسُجن بها نحو ست سنواتٍ. ونقله الأشرف أينال إلى مكة، فأقام بها نحو ثلاث سنواتٍ، وأعاده السلطان الظاهر خشقدم إلى مصر. وولي إمرة العساكر في دولة الظاهر بلباي. ولما خُلع بلباي اتفق أمراء العساكر على توليته السلطنة فبايعوه سنة ٨٧٢هـ، وتلقّب بالملك الظاهر كسابقيه.

لم يكد السلطان الظاهر تمربغا يستقرّ في حكمه حتى ثارت عليه المماليك فخلعوه، وسلّموا السلطنة إلى خير بك مساءً، وكانت مدة سلطنة تمربغا ٥٨ يوماً.

كان تمربغا شجاعاً، عارفاً بأنواع الفروسية، وافر العقل، وتُنسب إليه أشياء كثيرة من آلات الحرب، ورمي النشّاب، ولعب الرمح.

- ١٨ -

خير بك

(٨٧٢ - ٨٧٢هـ)

تسلّم خير بك السلطنة مساءً وفي صباح اليوم التالي خلعه المماليك ثانيةً فكانت مدة سلطنته ليلةً واحدةً، وأُعطيت السلطنة بعده إلى الأمير قايتباي.

- ١٩ -
الأشرف قايتباي
(٨٧٢ - ٩٠١هـ)

قايتباي المحمودي الأشرفي ثم الظاهري، أبو النصر، سيف الدين، ولد سنة ٨١٥هـ، اشتراه الأشرف برسباي (٨٢٥ - ٨٤١هـ) بمصر صغيراً من الخوجه محمود وذلك سنة ٨٣٩هـ، وصار إلى الظاهر جقمق (٨٤٢ - ٨٥٧) بالشراء، فأعتقه واستخدمه في جيشه فانتهى إلى أن كان أمير العساكر في عهد الظاهر تمربغا (٨٧٢ - ٨٧٢هـ)، وخلع المماليك السلطان تمربغا في السنة نفسها، وبايعوا قايتباي بالسلطنة، فتلقّب بالملك الأشرف.

أنفق الأشرف قايتباي أموالاً كثيرةً على العساكر للقتال وكان ذلك شغله الشاغل.

أكرم الأشرف قايتباي سلفه الظاهر تمربغا (٨٧٢ - ٨٧٢هـ) وسيّره إلى دمياط طليقاً، مصون الكرامة، فأقام قليلاً وانسلّ هارباً يريد الشام، فقُبض عليه في غزة، وأُعيد إلى الإسكندرية سجيناً فأقام بها إلى أن توفي بها سنة ٨٧٩هـ.

أخذ الأشرف قايتباي الأمور بحزمٍ فدانت له،

ونتيجة الاستقرار الذي عمّ أيامه فقد انصرف إلى إنشاء الطرق والجسور، والمدارس، والمساجد. وكذلك فقد انصرف إلى الشؤون الخارجية فأرسل عدة حملاتٍ ضد إمارة (ذو الفقار) التركمانية التي تقع على أطراف بلاد الشام بين البلاد التي تخضع للعثمانيين والبلاد التي تخضع للمماليك.

أرسل الأشرف قايتباي حملةً سنة ٨٧٦هـ إلى إمارة (ذو الفقار) وأميرها (شاه سوار)، وكان السلطان محمد الفاتح العثماني يُؤيّد هذه الإمارة التركمانية ويدعمها، ومع ذلك فقد استطاعت هذه الحملة بقيادة الأمير (يشبك) أن تستولي على عينتاب، وأضنه، وطرسوس، وأن تأسر أمير هذه الدولة التركمانية (شاه سوار)، وأن تحمله معها إلى القاهرة حيث أُعدم شنقاً على باب زويلة سنة ٨٧٧هـ. وقد عُيّن الأمير (بوداق) من قبل السلطان قايتباي أميراً على دولة (ذو الفقار) التركمانية.

وقاد الأمير (يشبك) حملةً ثانيةً سنة ٨٧٧هـ إلى الإمارة التركمانية الثانية (الشاة البيضاء) التي كان أميرها آنذاك حسن الطويل الذي أغار على ضواحي حلب، وقد تمكّن الأمير (يشبك) من إحراز النصر في معركة البيرة على نهر الفرات، وتوفي الأمير حسن الطويل سنة

٨٨٣هـ، وخلفه ابنه يعقوب أمير الرها.

وسار الأمير (يشبك) سنة ٨٨٥هـ إلى جهات الإمارات التركمانية فالتقى مع أمير دولة الشاة البيضاء فهُزم المماليك، وأسر (يشبك) وقُتل على شاطئ نهر الفرات. ثم عقد السلطان قايتباي صلحاً مع إمارة الشاة البيضاء.

استنجد أمير غرناطة بالسلطان قايتباي لدعمه على دفع الإفرنج عن غرناطة، فاكتفى بالالتجاء إلى تهديدهم عن طريق القساوسة الذين في القدس، وبالأسلوب السياسي، لكن الإفرنج احتلّوا غرناطة سنة ٨٩٧هـ وذهبت الأندلس.

كان السلطان قايتباي متقشّفاً، له اشتغال بالعلم، كثير المطالعة، فيه نزعة صوفية، شجاع عارف بأنواع الفروسية، مهيب عاقل حكيم، إذا غضب تهدأ ثورته بسرعةٍ، أبقى كثيراً من آثار العمران في مصر والحجاز والشام.

توفي السلطان الأشرف قايتباي سنة ٩٠١هـ وكان قد تنازل لابنه محمد قبل موته بيومٍ واحدٍ.

وكانت مدة سلطنة الأشرف قايتباي تسعاً وعشرين سنةً.

- ٢٠ -

الناصر محمد

(٩٠١ ـ ٩٠٢هـ)

قُلّد محمد بن السلطان الأشرف قايتباي السلطنة فتلقّب باسم الملك الناصر غير أنه لم يلبث أن عُزل بعد عدة أشهرٍ إذ كان صغيراً لم يزد عمره على الأربع سنواتٍ.

- ٢١ -

قانصوه

(٩٠٢ ـ ٩٠٣هـ)

بعد أن عُزل الناصر محمد عن السلطنة قلّد الخليفة المستمسك بالله الأمير قانصوه غير أن الجند قد وثبوا عليه وقتلوه بعد سنةٍ على تسلّمه السلطنة.

- ٢٢ -

الناصر محمد «للمرة الثانية»

(٩٠٣ _ ٩٠٤هـ)

بعد أن قُتل الأمير قانصوه سنة ٩٠٣هـ أُعيد الناصر محمد بن قايتباي، ثم لم يلبث أن قُتل أيضاً بعد أشهرٍ من تسليمه السلطنة.

- ٢٣ -

الظاهر قانصوه

(٩٠٤ ـ ٩٠٥هـ)

قانصوه بن قانصوه الأشرفي، أبو سعيد، ولد سنة ٨٧٦هـ في بلاد الجراكسة ونشأ فيها، وأُحضر إلى مصر وهو شاب فاشتراه الأمير قانصوه الألفي بمصر، وقدّمه للأشرف قايتباي سنة ٨٩٨هـ أي كان عمره اثنتين وعشرين سنةً فظهر أنه أخو سريّة السلطان قايتباي، واسمها «أصل باي» وهي أم ولده «الناصر محمد بن قايتباي» فاستخدمه ورقّاه. ولما ولي الناصر محمد السلطنة جعله كبير الخزنة، وعُرف بخال السلطان الناصر محمد. وبعد أن قُتل الناصر محمد سنة ٩٠٤هـ اتفق الأمراء على توليته فبويع بالقاهرة سنة ٩٠٤هـ، وتلقّب بالملك الظاهر أبي سعيد، فكان من أسعد المماليك حظاً في سرعة تقدّمه.

كان عاقلاً حليماً، يعرف العربية وكان قليل الكلام بها، وعمّ الرخاء في مصر أيامه، ولكن لم تطل مدته إذ خلعه أمراء الجيش بعد سنةٍ وثمانية أشهرٍ وثلاثة عشر يوماً من ولايته، فاختفى، ثم قُبض عليه وأُرسل إلى السجن بالإسكندرية. قال بعض معاصريه: خُلع والناس عنه راضون.

ـ ٢٤ ـ

الأشرف جانبلاط

(٩٠٥ ـ ٩٠٦هـ)

بعد أن عُزل الظاهر قانصوه قلّد الخليفة الأمير جانبلاط السلطنة، وأخذ لقب الأشرف على لقب أستاذه الأشرف قايتباي. وجانبلاط من مواليد ٨٦٥هـ.

جانبلاط بن يشبك الأشرفي، أبو النصر، اشتراه الأمير يشبك بن مهدي الجركسي، وأقام عنده مدةً حفظ بها القرآن الكريم. ثم قدّمه مع جملةٍ من المماليك إلى الأشرف قايتباي فاستخدمه ورقّاه إلى أن جعله أميراً للحاج المصري أكثر من مرةٍ، وجعله الناصر محمد بن قايتباي سنة ٩٠١هـ مشرفاً كبيراً، ثم عزله، وأُرسل بعد ذلك نائباً في حلب، ونُقل إلى دمشق، واستقدمه السلطان الظاهر قانصوه إلى مصر فجعله أميراً للعساكر سنة ٩٠٤هـ، وقام بعض أمراء المماليك على الظاهر قانصوه فخلعوه، وبايعوا جانبلاط بالسلطنة.

استمر السلطان جانبلاط ستة أشهرٍ وثمانية عشر يوماً في منصبه.

أعلن نائب الشام الأمير «قوصروه» العصيان فأرسل له الأشرف جانبلاط حملةً بقيادة الأمير «طومان

باي» ومعه الأمير «قانصوه الغوري». ولما وصل الأمير طومان باي إلى الشام اتفق مع الأمير قوصروه على الغدر بالأشرف جانبلاط والسير إلى مصر معاً، وقتال جانبلاط، وتعيين طومان باي سلطاناً باسم «الملك العادل» كما عيّنوا الأمير «قوصروه» أميراً للعسكر.

غدر «طومان باي» بصديقه «قوصروه» وقتله، وبدأت مرحلة من الظلم، فنفر الجند من الملك العادل طومان باي، وبدؤوا يتآمرون عليه فهرب واختفى عن الأنظار.

اتجهت الأنظار إلى الأمير «قانصوه الغوري» لتعيينه سلطاناً.

- ٢٥ -

العادل طومان باي

(٩٠٦ - ٩٠٦هـ)

طومان باي بن قانصوه، أبو النصر، اشتراه قانصوه اليحياوي نائب الشام، وقدّمه مع جملةٍ من المماليك إلى الأشرف قايتباي بمصر، فاستخدمه، فترقّى إلى أن كان مدير شؤون المملكة أيام الأشرف جانبلاط، وسافر إلى الشام فتسلطن في دمشق، وتلقّب بالملك العادل سنة ٩٠٦هـ، وعاد إلى مصر فحاصر السلطان جانبلاط بالقلعة، وقبض عليه، وسجنه بالإسكندرية، ثم أمر بخنقه، وجُدّدت له البيعة بحضور الخليفة المستمسك بالله (٨٩٣ - ٩١٤هـ)، وساءت سيرته بعد أن تسلّم السلطنة فقتل بعض أنصاره خنقاً، وأراد قتل جلال الدين السيوطي، فاختفى ونجا.

اضطربت حال الملك العادل طومان باي، فوثب عليه أمراء الجيش فاختبأ، فخلعوه، وكانت مدة سلطنته ثلاثة أشهرٍ وعشرة أيامٍ.

كان مهيباً، وافر العقل، إلا أنه سفّاك للدماء، ظالم.

استمرّ مختفياً مدةً، ثم ظهر وقُبض عليه، وقُطع رأسه في أوائل سلطنة قانصوه الغوري.

ـ ٢٦ ـ

الأشرف قانصوه الغوري

(٩٠٦ ـ ٩٢٢هـ)

قانصوه بن عبد الله الظاهري نسبةً إلى الظاهر خشقدم، الأشرفي نسبةً إلى الأشرف قايتباي، الغوري نسبةً إلى طبقة الغور وهي إحدى الطبقات التي كانت بمصر معدةً لتعليم مماليك السلطان قراءة القرآن، أبو النصر، سيف الدين، الملقّب بالملك الأشرف.

خدم السلاطين، وولي حجابة الحجاب بحلب، ثم بويع بالسلطنة في قلعة الجبل بالقاهرة سنة ٩٠٦هـ بعد اختفاء العادل طومان باي، وقلّده السلطنة الخليفة المستمسك بالله.

تابع الأشرف قانصوه الغوري سلفه السلطان العادل طومان باي الذي اختفى واستمرّ في متابعته حتى قبض عليه حيلةً وقتله، وعيّن في الدولة الأمراء الذين يثق بهم، وحصّن الإسكندرية، ورشيد، وأصلح القلعة، وحفر الترع، وأكثر من المماليك واعتنى بهم، ووطّد الأمن والاستقرار.

أغار الاسبتاريون في جزيرة رودوس على مصر سنة ٩١٤هـ فردّهم.

ووصل البرتغاليون الصليبيون إلى سواحل بلاد العرب من جهة الجنوب، ودخلوا إلى البحر الأحمر فجهز السلطان الأشرف قانصوه الغوري حملةً جعل قيادتها لحسين الكردي وسلّمه نيابة جدة، فأبحرت من ميناء السويس سنة ٩١١هـ، واستطاعت أن تهزم البرتغاليين على الشواطئ الهندية سنة ٩١٤هـ، وأن تغنم غنائم كثيرةً، لكن الأسطول المملوكي هُزم بعدئذٍ أمام البرتغاليين في معركة «ديو» قرب السواحل الهندية بعد الانتصار الذي أحرزه في السنة السابقة ٩١٤هـ. وعاد القائد حسين الكردي إلى مصر بعد غياب سبع سنوات، فوصل إلى السويس سنة ٩١٨هـ، واستطاع البرتغاليون الاستيلاء على شبه جزيرة كوجرات في الهند، ودخلوا إلى البحر الأحمر، وحاصروا ميناء سواكن، فأبحرت حملة من السويس بقيادة حسين الكردي أيضاً سنة ٩٢١هـ، وفيها سلمان العثماني معاوناً لحسين الكردي. وفي شهر رجب سنة ٩٢٢هـ اختلف سلمان العثماني وحسين الكردي فقتل الأول منهما الثاني.

أغار الاسبتاريون الصليبيون في جزيرة رودوس على مصر سنة ٩١٥هـ، ولكنهم هُزموا، وأعادوا الغارة سنة ٩١٦هـ، وقتلوا محمد بيك، فكان لذلك الأثر

الكبير على نفسية السلطان قانصوه الغوري حتى أنه قبض على رهبان كنيسة القيامة في القدس ووبّخهم. وفي سنة ٩١٧هـ أغار الاسبتاريون أيضاً على سواحل «البرلس» بين مصب فرعي النيل فداهمهم حامد المغربي، وهزمهم، وأسر مائتين منهم وساقهم إلى القاهرة.

كانت العلاقة حسنةً بين دولة المماليك وبين الدولة العثمانية، وقد ازيّنت القاهرة سنة ٨٥٧هـ بمناسبة فتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح وكانت الزينة بأمرٍ من السلطان أينال (٨٥٧ ـ ٨٦٥هـ)، وكانت القاهرة ترسل وفداً إلى استانبول بعد كل نصرٍ أو عند تولية سلطانٍ، ثم تعكّرت العلاقات بين الدولتين سنة ٨٦٥هـ عندما وصل الظاهر خشقدم إلى السلطنة (٨٦٥ ـ ٨٧٢هـ).

مات أميرا دولتي (ذو القادر) و(قرمان) التركمانيتين سنة ٨٦٩هـ فعيّن العثمانيون عليهما أميرين من غير أنصار المماليك، ومع هذا الخلاف الذي بدأ يظهر بين العثمانيين والمماليك فقد فرّ إلى القاهرة الأمير (جم) أخو السلطان العثماني بايزيد الثاني، وفي الوقت نفسه فقد آوت استانبول بعض أمراء المماليك الفارين من مصر والشام.

لقد أرسل السلطان قايتباي حملةً ضد إمارة (ذو القادر) سنة ٨٧٦هـ استطاعت أن تستولي على هذه الإمارة، وأن تأسر أميرها (شاه سوار) الذي نُقل إلى القاهرة حيث أُعدم على باب زويلة، وأن تُعيّن الأمير (بوداق) مكانه، وهو من الذين يناصرون المماليك، وفي السنة التالية انتصر المماليك على حسن الطويل أمير دولة (الشاة البيضاء) في معركة البيرة على نهر الفرات.

لقد ثار ابن (شاه سوار) على عمه (علي دولات) الذي يُؤيّده المماليك، ودعم السلطان سليم العثماني ابن (شاه سوار) وهاجم عليّ دولات، وهذا ما وطّد الصلة بين المماليك وعليّ دولات. وعندما دخل الصفويون بغداد فر ملكها من التركمان إلى القاهرة مقر دولة المماليك رغم أن جده حسن الطويل كان قد قاتل المماليك.

لقد أثارت تصرّفات الصفويين السلطان سليم الأول العثماني فآثر ترك قتال أوروبا والتوجّه إلى الصفويين وقتالهم، ويمكن أن أقول: إن أوروبا كانت تدعم الإسبان والبرتغاليين منذ مدةٍ حتى استطاعوا طرد المسلمين من الأندلس سنة ٨٩٧هـ وبقيت تدعمهم بعد

ذلك، وعندما قام العثمانيون يقاتلون الأوروبيين ويتقدّمون من جهة الشرق رأت أوروبا أن تحرّك الصفويين ضد العثمانيين من الشرق ليخفّ ضغط العثمانيين على أوروبا.

لما اشتدّ الضغط الصفوي على الشرق العثماني فضّل السلطان العثماني ترك أوروبا والتوجّه نحو الشرق لتأديب الصفويين، واعتقد أن المماليك سيكونون عوناً له في مهمته هذه مذهبياً، كما أن البرتغاليين من أوروبا التي يقاتلها العثمانيون، والبرتغاليون يريدون دخول البحر الأحمر ويُهدّدون المدينة المنورة ونبش قبر رسول الله ﷺ كي يتسلّموا القدس، والمماليك يقاتلون البرتغاليين ويُدافعون عن بلاد المسلمين فالمصلحة الإسلامية العثمانية والمملوكية واحدة. غير أن العثمانيين عندما عرضوا مشروعهم على المماليك لقتال الصفويين وقف المماليك على الحياد حسب رأيهم إلا أن الحياد ذاك معناه تقوية الخصوم وهم الصفويون بل والبرتغاليون الذين وراءهم وحلفاؤهم.

وعندما رأى العثمانيون هزيمة المماليك أمام البرتغاليين كان عليهم أن يقوموا بواجبهم فيواجهوا البرتغاليين ولكن المماليك لم يسمحوا لهم بالمرور

ببلادهم للوقوف في وجه البرتغاليين فأضمر السلطان سليم الأول في نفسه رغبته بالقضاء على المماليك إذا استطاع إحراز النصر على الصفويين.

تحرّك السلطان سليم نحو الصفويين لقتالهم غير أن عليّ دولات أمير دولة (ذو القادر) قد تصدّى لطلائع الجيش العثماني، ولما كان هذا الأمير من أعوان المماليك لذا اقتنع السلطان سليم بأن هذا العمل إن هو إلا من تحريض المماليك فما كان من السلطان سليم إلا أن داهم الإمارات التركمانية، وقتل عليّ دولات، وولّى مكانه ابن (شاه سوار)، وتابع نحو الصفويين فانتصر عليهم، ودخل عاصمتهم مدينة تبريز سنة ٩٢٠هـ بعد معركة جالديران المشهورة، وبعد هذا النصر بدأ يستعدّ لقتال المماليك، ولقد ضمّ السلطان العثماني إلى الدولة العثمانية بلاد الجزيرة الفراتية وإمارة (ذو القادر) سنة ٩٢١هـ، وأخذ يتصل بنواب المماليك في بلاد الشام.

أحسّ السلطان قانصوه الغوري بمشروع السلطان سليم فجهّز حملةً وقادها بنفسه، وانطلق إلى بلاد الشام، وتوجّه إلى حلب، وسار من حلب إلى مرج دابق في الشمال الغربي من حلب حيث التقى مع السلطان سليم العثماني، ورتّب السلطان قانصوه الغوري

جيشه فكان هو في القلب وعلى ميمنته نائب دمشق جانبردي الغزالي وعلى ميسرته نائب حلب خاير بك، وتقدّم للقتال، وأحرز النصر في الجولة الأولى، وحمل السلطان سليم العثماني ثانيةً، وانضمّ إليه نائب حلب خاير بك وبعض الأمراء فنالوا النصر.

ولما رأى قانصوه الغوري ما رأى من انخذال جيشه وانضمام بعض أمرائه إلى خصمه أُغمي عليه، وهو على فرسه فمات قهراً وسقط عن فرسه، وضاعت جثته تحت سنابك الخيل.

وتقدّم العثمانيون فدخلوا حلب وبقية مدن بلاد الشام دون مقاومةٍ بل أحياناً كثيرةً كانوا يستقبلون استقبالاً حاراً حيث يُنظر إليهم نظرة احترامٍ على أنهم توغّلوا في أوروبا، وضربوا الدولة الصفوية، ويرغبون منازلة البرتغاليين الذين يُهدّدون المسلمين بل والمقدسات الإسلامية.

تابع السلطان العثماني تقدّمه نحو مصر فوقف في وجهه نائب السلطان قانصوه الغوري، وهو الأشرف طومان باي.

ـ ٢٧ ـ

الأشرف طومان باي

(٩٢٢ ـ ٩٢٣هـ)

طومان باي، أبو النصر، الملقّب بالملك الأشرف، وُلد ٨٧٩هـ، اشتراه قانصوه الغوري بمصر، وقدّمه إلى الأشرف قايتباي، فلما تولّى السلطنة الناصر محمد بن قايتباي أعتقه، فترقّى. ولما آلت السلطنة إلى قانصوه الغوري قدّمه، ثم جعله أميراً كبيراً، وأنابه عن نفسه حين سار من مصر لقتال العثمانيين سنة ٩٢٢هـ.

وصلت أخبار القتال إلى مصر، وجاء نبأ مقتل السلطان قانصوه الغوري في معركة مرج دابق فاتفق الأمراء على تولية طومان باي فبويع بالقاهرة سنة ٩٢٢هـ والدولة في اضطراب لخلو الخزائن من المال بسبب الحرب، ولاحتلال العثمانيين لبلاد الشام وزحفهم نحو مصر. فقام بأعباء الملك، ووصل الجيش العثماني إلى غزة فجهّز جيشاً وسيّره لقتالهم فانهزم، وحشد طومان باي الجموع من كل أفقٍ ودافع عن القاهرة بإمكاناته كلها فانهزم في معركة الريدانية على أبواب القاهرة واختفى طومان باي، ودخل السلطان سليم العثماني القاهرة في ٨ محرم سنة ٩٢٣هـ، وما كاد يستقر حتى خرج طومان باي

من مخبئه بقوةٍ من المماليك ونشبت معركة بين الطرفين سنة ٩٢٣هـ كادت تعصف بالعثمانيين غير أنهم صبروا فظفروا، واختفى طومان باي ثانيةً، وعمل السيف في رقاب المماليك، وعانى أهل مصر محنةً.

عاد طومان باي بجيشٍ جهّزه في الصعيد وقاتل العثمانيين في قرية وردان قرب الجيزة فانتصر العثمانيون، واختفى طومان باي، فدلّ عليه بعض الناس فاعتقل، وأمر به السلطان سليم فاقتيد إلى باب زويلة وأُعدم شنقاً في الحادي والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٩٢٣هـ.

كان طومان باي محمود السيرة مع الرعية، أبطل كثيراً من المظالم.

كانت مدة سلطنة طومان باي ثلاثة أشهرٍ وأربعة عشر يوماً، وبمقتله دخلت مصر في حكم العثمانيين.

تنازل الخليفة العباسي في القاهرة المتوكل على الله محمد (٩١٤ ـ ٩٢٣هـ) عن الخلافة للسلطان سليم الأول العثماني وبذا انتهت الخلافة العباسية في مصر بعد أن دامت ٢٦٤ سنة (٦٥٩ ـ ٩٢٣هـ)، وغدت الخلافة للعثمانيين وبايع أهل مصر الخليفة الجديد العثماني. كما جاءه شريف مكة محمد أبو نمي بن الشريف بركات، وأعلن له الطاعة.

الخاتمة

لم يغب اسم الخلافة عن ديار الإسلام سوى سنتين وعدة أشهرٍ (٦٥٦ ـ ٦٥٨هـ) إذ قُضي عليها في بغداد سنة ٦٥٦هـ ،ولكن لم تلبث أن قامت في القاهرة سنة ٦٥٨هـ.

وإذا كانت الخلافة في أواخر أيامها في بغداد ضعيفةً، ولكنها مع ذلك هي أقوى وأفضل مما هي عليه في أوائل أيامها في القاهرة. ذلك أنها كانت في بغداد محطّ أنظار المسلمين ترتبط قلوبهم بها، ويشعرون بالتحاقهم بها، وما يحسّون في موطنٍ بضعفٍ إلا ويطلبون من الخلافة الدعم ويأملون بالنجدة، وما تنتابهم في أرضٍ فاقة إلا ويرجون المساعدة ويتوقّعون المدد السريع، على حين لم يكن هناك طلب من خليفةٍ في القاهرة ولا رجاء مساعدة.

الخليفة في بغداد يأمر وينهى، ويقطع ويصل، ويقبل ويرفض، ويُسيّر الجيوش ويبعث النجدات، ويرسل الوفود، ومع ذلك نعدّه ضعيفاً وخلافته تتراجع.

أما الخليفة في القاهرة فليس له من الأمر شيء، يعيش وراء ساترٍ شفّافٍ ناصعٍ تُرى صورته بوضوحٍ، ويُعرف اسمه ولكن لا يترك موضعه ولا يتحرّك باتجاهٍ، فهو إذن اسم وصورة فقط.

وقد رأينا وضع السلاطين وضعفهم فهذا يُخلع وذاك يُعزل والآخر يُقتل، ومع ذاك فهم أصحاب السيادة ورجال السلطة وأهل النفوذ فما هو شأن من يتبعهم؟.

هذا وضع الخلفاء في قاعدة سلطانهم ومركز حكمهم الاسمي، ويُضاف إلى هذا شأنهم في ديار الاسم، إذ أنهم في دولة المماليك (العبيد) وتحت إشراف سلاطين مماليك (عبيد) فكيف يُنظر إليهم؟ فالمماليك لا مكانة لهم ولا كيان في الدنيا، ولكن هذا لا يمنع أجر العمل، ولا يحرم الثواب يوم الحساب.

ويُضاف إلى هذا وضع ديار الإسلام التي يسيطر المغول على أجزاء منها، ويُهدّد البرتغاليون أرجاءً منها، وفي كل ناحيةٍ من مغربها مُلك وسلطان، وإمارات تتناحر وأمصار تتنافس، والضعف عام لا يُغادر جزءاً منها.

والوعي الإسلامي قد ضعُف، والسعي وراء الدنيا

تضاعف، والعمل للشهرة زاد، والرغبة في الشهرة وُجدت.

فالخليفة صورة معروفة من وراء الساتر الشفاف، والاسم معروف من خلال الدولة، ولكن العمل غير موجود لذا فالخليفة غائب والخلافة في غيابٍ من سقوطها في بغداد إلى قيامها في إستانبول، مع فضائل لا تُنسى، وأعمال لا تُنكر فغياب اسمٍ، وضعف عملٍ لا يزيل كل خيرٍ ولا يمنع كل فضلٍ فهذه أمور قائمة وموجودة رحم الله فاعليها وجزاهم كل خيرٍ.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المُحْتَوى

الموضوع	الصفحة
* مقدمة	٥

الخلافة

الخلافة الأموية	١٧
الخلافة العباسية	١٨
سقوط الخلافة	٢١
معاول الهدم	٢٣
١" ـ قوة الشرك	٢٤
٢" ـ قوة النصارى	٢٤
٣" ـ قوة اليهود	٢٩
٤" ـ قوة المجوس	٣١

غياب الخلافة

المماليك	٤٨
الخلافة الرمزية	٦١

الباب الأول

الخلفاء

١ ـ المستنصر بالله ٦٥٩ ـ ٦٦٠هـ	٦٦
٢ ـ الحاكم بأمر الله ٦٦١ ـ ٧٠١هـ	٦٨

الموضوع	الصفحة

٣ ـ المستكفي بالله ٧٠١ ـ ٧٣٦هـ ٧٢
٤ ـ الواثق بالله إبراهيم ٧٣٦ ـ ٧٤٢هـ ٧٥
٥ ـ الحاكم بأمر الله ٧٤٢ ـ ٧٥٣هـ ٧٧
٦ ـ المعتضد بالله ٧٥٣ ـ ٧٦٣هـ ٧٩
٧ ـ المتوكل على الله (١) ٧٦٣ ـ ٧٨٥هـ ٨٠
٨ ـ الواثق بالله محمد ٧٨٥ ـ ٧٨٨هـ ٨٢
٩ ـ المستعصم بالله ٧٨٨ ـ ٧٩١هـ ٨٣
١٠ ـ المتوكل على الله (٢) ٧٩١ ـ ٨٠٨هـ ٨٥
١١ ـ المستعين بالله ٨٠٨ ـ ٨١٥هـ ٨٧
١٢ ـ المعتضد بالله ٨١٥ ـ ٨٤٥هـ ٨٩
١٣ ـ المستكفي بالله ٨٤٥ ـ ٨٥٤هـ ٩١
١٤ ـ القائم بأمر الله ٨٥٤ ـ ٨٥٩هـ ٩٢
١٥ ـ المستنجد بالله ٨٥٩ ـ ٨٨٤هـ ٩٤
١٦ ـ المتوكل على الله ٨٨٤ ـ ٨٩٣هـ ٩٦
١٧ ـ المستمسك بالله ٨٩٣ ـ ٩١٤هـ ٩٧
١٨ ـ المتوكل على الله ٩١٤ ـ ٩٢٣هـ ٩٨

الباب الثاني

السلاطين

مقدمة ١٠٢
نهاية الأيوبيين في مصر ١٠٣

الفصل الأول

سلاطين المماليك البحرية

١ ـ شجرة الدرّ ٦٤٨ ـ ٦٤٨هـ ١٠٩

الموضوع	الصفحة

٢ ـ عزّ الدين أيبك ٦٤٨ ـ ٦٥٥هـ ١١٠
٣ ـ نور الدين عليّ ٦٥٥ ـ ٦٥٧هـ ١١٧
٤ ـ سيف الدين قُطُز ٦٥٧ ـ ٦٥٨هـ ١١٩
٥ ـ الظاهر بيبرس ٦٥٨ ـ ٦٧٦هـ ١٢٧
٦ ـ السعيد بركة ٦٧٦ ـ ٦٧٨هـ ١٣٤
٧ ـ العادل بدر الدين ٦٧٨ ـ ٦٧٨هـ ١٣٥
٨ ـ المنصور قلاوون ٦٧٨ ـ ٦٨٩هـ ١٣٦
٩ ـ الأشرف خليل ٦٨٩ ـ ٦٩٣هـ ١٤١
١٠ ـ الناصر محمد ٦٩٣ ـ ٦٩٤هـ ١٤٣
١١ ـ العادل كتبغا ٦٩٤ ـ ٦٩٦هـ ١٤٤
١٢ ـ المنصور لاجين ٦٩٦ ـ ٦٩٨هـ ١٤٦
١٣ ـ الناصر محمد ٦٩٨ ـ ٧٠٨هـ للمرة الثانية .. ١٤٧
١٤ ـ المظفّر بيبرس ٧٠٨ ـ ٧٠٩هـ ١٥٠
١٥ ـ الناصر محمد ٧٠٩ ـ ٧٤١هـ للمرة الثالثة .. ١٥٢
١٦ ـ المنصور أبو بكر ٧٤١ ـ ٧٤٢هـ ١٥٥
١٧ ـ الأشرف كجك ٧٤٢ ـ ٧٤٢هـ ١٥٧
١٨ ـ الناصر أحمد ٧٤٢ ـ ٧٤٣هـ ١٥٨
١٩ ـ الصالح إسماعيل ٧٤٣ ـ ٧٤٦هـ ١٥٩
٢٠ ـ الكامل شعبان ٧٤٦ ـ ٧٤٧هـ ١٦٠
٢١ ـ المظفّر أمير حاج ٧٤٧ ـ ٧٤٨هـ ١٦١
٢٢ ـ الناصر حسن ٧٤٨ ـ ٧٥٢هـ ١٦٢
٢٣ ـ الصالح صالح ٧٥٢ ـ ٧٥٥هـ ١٦٣
٢٤ ـ الناصر حسن ٧٥٥ ـ ٧٦٢هـ للمرة الثانية .. ١٦٤

الموضوع	الصفحة
٢٥ ـ المنصور محمد ٧٦٢ ـ ٧٦٤هـ	١٦٥
٢٦ ـ الأشرف شعبان ٧٦٤ ـ ٧٧٨هـ	١٦٦
٢٧ ـ المنصور عليّ ٧٧٨ ـ ٧٨٣هـ	١٦٨
٢٨ ـ الصالح حاجي ٧٨٣ ـ ٧٨٤هـ	١٦٩
برقوق ٧٨٤ ـ ٧٩١هـ	١٧٠
٢٩ ـ الصالح حاجي ٧٩١ ـ ٧٩٢هـ للمرة الثانية	١٧٢
الفصل الثاني	
سلاطين المماليك الجراكسة	١٧٩
١ ـ الظاهر برقوق ٧٩٢ ـ ٨٠١هـ للمرة الثانية	١٨٦
٢ ـ الناصر فرج ٨٠١ ـ ٨٠٨هـ	١٨٨
٣ ـ المنصور عبد العزيز ٨٠٨ ـ ٨٠٨هـ	١٩٠
٤ ـ الناصر فرج ٨٠٨ ـ ٨١٥هـ للمرة الثانية	١٩١
الخليفة ٨١٥ ـ ٨١٥هـ	١٩٢
٥ ـ المؤيد شيخ بن عبد الله ٨١٥ ـ ٨٢٤هـ	١٩٢
٦ ـ المظفّر أحمد ٨٢٤ ـ ٨٢٤هـ	١٩٤
٧ ـ الظاهر ططر ٨٢٤ ـ ٨٢٤هـ	١٩٥
٨ ـ الصالح محمد ٨٢٤ ـ ٨٢٥هـ	١٩٧
٩ ـ الأشرف برسباي ٨٢٥ ـ ٨٤١هـ	١٩٨
١٠ ـ العزيز يوسف ٨٤١ ـ ٨٤٢هـ	٢٠٢
١١ ـ الظاهر جقمق ٨٤٢ ـ ٨٥٧هـ	٢٠٣
١٢ ـ المنصور عثمان ٨٥٧ ـ ٨٥٧هـ	٢٠٦
١٣ ـ الأشرف أينال ٨٥٧ ـ ٨٦٥هـ	٢٠٧

الموضوع	الصفحة

١٤ ـ المؤيد أحمد ٨٦٥ ـ ٨٦٥هـ ٢٠٩
١٥ ـ الظاهر خشقدم ٨٦٥ ـ ٨٧٢هـ ٢١٠
١٦ ـ الظاهر بلباي ٨٧٢ ـ ٨٧٢هـ ٢١١
١٧ ـ الظاهر تمربغا ٨٧٢ ـ ٨٧٢هـ ٢١٢
١٨ ـ خيربك ٨٧٢ ـ ٨٧٢هـ ليلة واحدة ٢١٣
١٩ ـ الأشرف قايتباي ٨٧٢ ـ ٩٠١هـ ٢١٤
٢٠ ـ الناصر محمد ٩٠١ ـ ٩٠٢هـ ٢١٧
٢١ ـ قانصوه ٩٠٢ ـ ٩٠٣هـ ٢١٨
٢٢ ـ الناصر محمد ٩٠٣ ـ ٩٠٤هـ للمرة الثانية .. ٢١٩
٢٣ ـ الظاهر قانصوه ٩٠٤ ـ ٩٠٥هـ ٢٢٠
٢٤ ـ جانبلاط ٩٠٥ ـ ٩٠٦هـ ٢٢١
٢٥ ـ العادل طومان باي ٩٠٦ ـ ٩٠٦هـ ٢٢٣
٢٦ ـ الأشرف قانصوه الغوري ٩٠٦ ـ ٩٢٢هـ ٢٢٤
٢٧ ـ الأشرف طومان باي ٩٢٢ ـ ٩٢٣هـ ٢٣١
- **الخاتمة** ٢٣٣
* **المحتوى** ٢٣٦